قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث فاطرَ السّماوات والأرض أنت وليّى فى الدّنيا والآخرة ، توفّنى مسلمًا وألحقنى بالصّالحين ﴾ وجاء عن سليمان عليه السّلام فى سورة النّمل قوله تعالى[1] : ﴿ فتبسّم ضاحكًا من قولها وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصّالحين ﴾ .

وإنّما كان اصطفاء الله تعالى إبراهيم عليه السّلام ، على نحو ما صرّحت به أولى الآيتين الكريمتين ، حين قال له ربّه فى هذه الحياة الدّنيا أسلم قال أسلمت لربّ العالمين ، على نحو ما صرّحت به ثانية الآيتين الكريمتين . قال تعالى : ﴿ إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين ﴾ إنّ ربّ العزّة يأمر إبراهيم عليه السّلام أن يسلم له جلّ وعلا ويستسلم لإرادته ويخضع لأوامره ويذعن لمشيئته ، والمعروف أنّ الإسلام بمعنى الاستسلام لله تعالى ، والانقياد له جلّ وعلا بالطّاعة والخلوص من الشّرك . لقد كان إسلام إبراهيم عليه السّلام لله تعالى فوريًّا وكاملاً . وانظر إلى لفظة الرّبّ الّتى تجىء مرّتين فى الآية الكريمة ، وقد عرفنا أنّها إنما تجىء حينما يكون الجوّ عابقًا بشذا الرّضا والامتنان . إنّ ربّ العزّة يأمر إبراهيم عليه السّلام بأن يسلم . وإنّ إبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب الّذى أكرمه الله تعالى بنعمه واصطفاه بآلائه وعلى رأسها نعمة النّبوّة يبادر إلى إعلان إسلامه لله ربّ العالمين وانظر إلى القول « أسلمت لربّ العالمين » فالله سبحانه وتعالى فى يقين إبراهيم عليه السّلام ربه وربّ كلّ العوالم سوى الله تعالى . إنّه جلّ وعلا مربّى الخلائق بنعمه وآلائه وإنّه جلّ وعلا له وحده الخلق والأمر ، خلق كلّ شىء فقدّره تقديرا ، وإذا قضى أمرًا فإنّما يقول له كن فيكون .

إنّ هذا المصطفى المختار خليق بأن يتّخذه الخلائق إمامًا لهم ، ففى ذلك صلاح دنياهم ودينهم ، وقد تحوّلت الإمامة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ . إنّ الّذى لا يتّبع محمّدًا ﷺ ، وقد جاء بدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده هو ذلك الّذى سفه نفسه وجهل قدرها وعمل ضدّ صلاحها وخيرها فى الحياتين الأولى والآخرة .

---

(١) الآية ١٩ .

الآيــة رقــم (١٣٢)

قال تعالى : ﴿ ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، يا بَنِيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ .

حينما نذهب إلى كون العلاقة وثيقةً بين الآيتين الكريمتين السّابقتين وكأنّ العلاقة تتجلّى قويّةً فى مثل هذا الفهم للعلاقة : ولقد اصطفينا إبراهيم فى الدّنيا إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين ، وإنّه فى الآخرة لمن الصّالحين ، نستطيع أن نفهم أنّ مجىء ضمير الغائب المؤنّث فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها : « ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » إنّما يراد به ملّة إبراهيم عليه السّلام الّتى جاءت الإشارة إليها فى قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ﴾ .

ونستطيع أن نفهم من هذه الآية الكريمة مدى حرص إبراهيم عليه السّلام ويعقوب عليه السّلام على دين الإسلام وبقائه وانتشاره . والملاحظ أنّ رسل الله تعالى لا يهتمّون فى هذه الحياة بشىءٍ غير الدّين الّذى أرسلهم الله تعالى لإقامته . فهذا زكريّا عليه السّلام وقد أحسّ بدنوّ أجله لا يهتمّ بغير الدّين ويسأل الله تعالى الذّرّيّة من صلبه كى تقوم بشئون الدين خير قيام. قال تعالى[1]: ﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا . إذ نادى ربّه نداءً خفيّا . قال ربّ إنّى وهن العظم منّى واشتعل الرّأس شيبًا و لم أكن بدعائك ربّ شقيّا . وإنّى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرًا فهب لى من لدنك وليّا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّا ﴾ .

والملاحظ أنّ زكريّا عليه السّلام ينّفذ وصيّة يعقوب عليه السّلام ومن قبله إبراهيم عليه السّلام : « ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » .

ويلاحظ مجىء جملة « وصّى » فى الصّيغة الّتى تفيد التّكثير ، فكلٌّ من النّبيّين الكريمين يكرّر الوصيّة ويكثّر من أخذ العهد على أبنائه بأن يستمسكوا بما أوحى الله تعالى إلى آل

---

(١) سورة مريم ١ ــ ٦ .

إبراهيم ، وأن يعضّوا بالنّواجذ على الملّة الإبراهيميّة ودين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . وقد قال تعالى[١] : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّنى براءٌ ممّا تعبدون . إلاّ الّذى فطرنى فإنّه سيهدين . وجعلها كلمةً باقيةً فى عقبه لعلّهم يرجعون ﴾ .

ولإبراهيم عليه السّلام من الأبناء إسماعيل وإسحاق عليهما السّلام . ويلحق بهما يعقوب بن إسحاق ــ الذى ولد فى حياة إبراهيم عليه السّلام ــ لأنّ الله سبحانه وتعالى بشر إبراهيم وزوجه بكلٍّ من إسحاق وابنه يعقوب عليهما السّلام . قال تعالى[٢] : ﴿ وامرأته قائمةٌ فضحكت فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذرّيّته النّبوّة والكتاب وآتيناه أجره فى الدّنيا وإنّه فى الآخرة لمن الصّالحين ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً وكلاًّ جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمّةً يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ .

وليعقوب عليه السّلام اثنا عشر ولدًا ذكرًا . وقد جاءت الإشارة إليهم جميعًا ، وفيهم يوسف عليه السّلام ، فى قوله تعالى من سورة يوسف[٥] : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّى رأيت أحد عشر كوكبًا والشّمسَ والقَمَرَ رأيتهم لى ساجدين ﴾ وكلّ واحدٍ من هؤلاء أبو قبيلة ، ويسمّى سبطًا . والسّبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى العرب[٦] . وقد جاءت الإشارة إلى هؤلاء الأسباط فى قوله تعالى من سورة الأعراف[٧] : ﴿ وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطًا أممًا ﴾ .

إنّ كلاًّ من إبراهيم ويعقوب يخاطبان بنيهما فى القول: «يا بَنىّ» وفى هذه الطّريقة الّتى يجىء فيها « النّداء بلفظ البنين مضافين إليه تلطّف غريبٌ وترجئةٌ للقبول وتحريك وهزٌّ لما يلقى إليهم من أمر الموافاة على دين الإسلام الّذى ينبغى أن يتلطّف فى تحصيله »[٨] ويبيّن كلٌّ من

---

(١) سورة الزّخرف ٢٦ ــ ٢٨
(٢) سورة هود ٧١ .
(٣) سورة العنكبوت ٢٧
(٤) سورة الأنبياء ٧٢ ، ٧٣ .
(٥) الآية ٤
(٦) انظر تفسير القرطبىّ ص ٥٢٥ .
(٧) الآية ١٦٠
(٨) البحر المحيط ٦ / ٣٩٩ .

إبراهيم ويعقوب عليهما السّلام لبنيهما أنّ الله اصطفى لهم الدّين ، دين الإسلام ، ويبنيان على تقرير هذه الحقيقة أمرًا غايةً فى الأهمّيّة : ﴿ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ إنّ الكلام الّذى يجرى على لسان النّبيّين الكريمين ، رغم البعد الزّمنىّ بين المناسبتين ، واحدٌ فى جوهره ويتّجه إلى من يعتقد أنّهم أكثر النّاس قبولاً لما يصدر من النبيّين الكريمين ، إنّهم الأبناء . إنّ الله سبحانه وتعالى قد اصطفى لهؤلاء الأبناء دين الإسلام الّذى بعث به رسله ، ومنهم إبراهيم عليه السّلام ويعقوب عليه السّلام ، واجتباه لهم واختاره . ويلاحظ أنّ لفظ الدّين يجىء معرّفًا بالألف واللّام اللّذين يدلاّن على العهد ، فأولئك الأبناء يعلمون أىّ دينٍ ذلك الّذى اصطفاه الله تعالى لهم والّذى يتحدّث عنه النّبيّان الكريمان . والمنتظر من الأبناء أن يتمسّكوا بذلك الدّين حتّى يتوفّاهم الله تعالى عليه . وإنّ إبراهيم ويعقوب عليهما السّلام ليذكّران البنين بالموت بصريح العبارة . ويفهم أنّ الموت يصحّ فى كلّ وقتٍ وفى كلّ مكان . فعلى أولئك الأبناء ألاّ يفاجئهم الموت إلاّ وهم مسلمون لله ربّ العالمين . وهذا دليلٌ على أنّ المطلوب من أبناء النّبيّين الكريمين أن يكونوا فى كلّ وقتٍ من الأوقات بل فى كلّ لحظةٍ من اللّحظات ممثّلين قمّة الإسلام لله ربّ العالمين لأنّ الله سبحانه وتعالى إنّما خلقهم من أجل عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له . وإن المطلوب من هذه الذّرّيّة الطّيّبة الّتى بعضها من بعض أن تكون القدوة الحسنة والمثال الّذى يحتذى .

وإنّ أولى النّاس بتطبيق هذه النّصيحة وتنفيذ تلك الوصيّة المسلمون لله ربّ العالمين أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ . وقد قال تعالى[1] : ﴿ إنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النّبىّ والّذين آمنوا والله ولىّ المؤمنين ﴾ وسبق أن عرفنا أنّ من العلماء من قال : إنّ شريعة إبراهيم شريعةٌ لنا إلاّ ما نسخ منها[2] .

---

(١) سورة آل عمران ٦٨ .

(٢) تفسير القرطبىّ ٥١٨ .

الآيــة رقــم (١٣٣)

قال تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى . قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهًا واحدًا ونحن له مسلمون ﴾ .

أم : أم هنا منقطعة تتضمّن معنى بل وهمزة الاستفهام الدّالّة على الإنكار . والتّقدير : بل أكنتم شهداء . فمعنى الإضراب الانتقال من شيءٍ إلى شيءٍ لا أنّ ذلك إبطالٌ لما قبله . ومعنى الاستفهام هنا التّقريع والتّوبيخ ، وهو فى معنى النّفى . أى ما كنتم شهداء فكيف تنسبون إليه ما لا تعلمون ولا شهدتموه أنتم ولا أسلافكم[1] ويقول الطّبرى[2] : « يعنى تعالى ذكره بقوله : أم كنتم شهداء : أكنتم . ولكنّه استفهم بأم إذ كان استفهامًا مستأنفًا على كلامٍ قد سبقه كما قيل : ﴿ الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين . أم يقولون افتراه ﴾ وكذلك تفعل العرب فى كلّ استفهامٍ ابتدأته بعد كلامٍ قد سبقه تستفهم فيه بأم » .

كنتم : « الخطاب لليهود والنّصارى الّذين ينْسُبون إلى إبراهيم ما لم يوص به بنيه ، وأنّهم على اليهوديّة والنّصرانيّة ، فردّ الله عليهم قولهم وكذّبهم وقال لهم على جهة التّوبيخ : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدّعون عن علم ! أى لم تشهدوا بل أنتم تفترون »[3] ويقول الطّبرىّ[4] : « والشّهداء جمع شهيد كما الشّركاء جمع شريك والخصماء جمع خصيم . وتأويل الكلام : أكنتم يا معشر اليهود والنّصارى المكذّبين بمحمّدٍ ﷺ الجاحدين نبوّته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت ، أى إنّكم لم تحضروا ذلك فلا تدّعوا على أنبيائى ورسلى الأباطيل وتنحلوهم اليهوديّة والنّصرانيّة فإنّى ابتعثت خليلى

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٠٠ وانظر تفسير القرطبى ص ٥٢٢ والكشّاف ١ / ٢٤٠ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٨ (٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٢ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٨ .

إبراهيم وولده إسحاق وإسماعيل وذرّيّتهم بالحنيفيّة المسلمة ، وبذلك وصّوا بنيهم ، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم » .

إذ : العامل فى إذ الأولى معنى الشّهادة ، وإذ الثّانية بدلٌ من الأولى[١] .

ومعنى حضر يعقوب الموت أى مقدّماته وأسبابه[٢] والحضور : الشهود[٣] .

وفى قوله : حضر كناية غريبةٌ أنّه غائب لا بدّ أن يقدم ، ولذلك يقال فى الدّعاء : واجعل الموت خير غائبٍ ننتظره[٤] .

يعقوب : قدّم المفعول هنا على الفاعل للاعتناء[٥] .

ما تعبدون : أىّ شىءٍ تعبدون[٦] وعبّر عن المعبود بما ولم يقل من ، لأنّه أراد أن يختبرهم . ولو قال من لكان مقصوده أن ينظر من لهم الاهتداء منهم وإنّما أراد تجربتهم فقال ما . وأيضًا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنّار والشّمس والحجارة فاستفهم عمّا يعبدون من هذه[٧] .

من بعدى : أى من بعد وفاتى[٨] وموتى[٩] .

قالوا نعبد : فى إجابتهم له بإظهار الفعل تأكيدٌ لما أجابوه به إذ كان يجوز أن يقال : قالوا إلٰهك ، فتصريحهم بالفعل تأكيدٌ فى الجواب أنّه مطابقٌ للسّؤال أعنى فى العامل الملفوظ به فى السّؤال[١٠] .

إلٰهك وإلٰه آبائك : إضافة الإلٰه إلى يعقوب فيه دليلٌ على اتّحاد معبود السّائل والمجيب لفظًا . وفى قوله : وإلٰه آبائك دليلٌ على اتّحاد المعبود أيضًا من حيث اللّفظ . وإنّما كرّر لفظ وإلٰه لأنّه لا يصحّ العطف على المجرور إلاّ بإعادة جارّه إلاّ فى الشّعر[١١] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٢ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٢ والبحر المحيط ١ / ٤٠١ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٩٧

(٤) البحر المحيط ١ / ٤٠١ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٤٠١ .

(٦) تفسير الطّبرى ١ / ٤٣٩ والكشّاف ١ / ٢٤٠ .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٢

(٨) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٩ .

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٢ البحر المحيط ١ / ٤٠٢ .

(١٠) البحر المحيط ١ / ٤٠٢

(١١) البحر المحيط ١ / ٤٠٣ .

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق : سمّى الله كلّ واحدٍ من العمّ والجدّ أبًا [١] وبدأ أوّلاً بإضافة الإله إلى يعقوب لأنّه هو السّائل . وقدّم إبراهيم لأنّه الأصل . وقدّم إسماعيل على إسحاق لأنّه أسنّ أو أفضل لكون رسول الله ﷺ من ذرّيّته وهو فى عمود نسبه . واقتصر على هؤلاء لأنّهم كانوا خير النّاس فى أزمانهم و لم يعمّ لأنّ النّاس كان لهم معبودون كثيرون دون الله[٢] .

إلٰهًا واحدًا : يجوز أن يكون بدلاً وهو بدل نكرة موصوفة من معرفة . ويجوز أن يكون حالاً ، ويكون حالاً موطّئة نحو : رأيتك رجلاً صالحًا . فالمقصود إنّما هو الوصف وجيء باسم الذّات توطئةً للوصف[٣] « قال ابن عطيّة : وهو قولٌ حسن لأن الغرض إثبات الوحدانيّة »[٤] .

ونحن له مسلمون : ابتداء وخبر . ويحتمل أن يكون فى موضع الحال والعامل نعبد[٥] ويقول الطّبرىّ[٦] : « وأحسن هذين الوجهين فى تأويل ذلك أن يكون بمعنى الحال وأن يكون بمعنى : نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق مسلمين لعبادته » ويقول أبو حيّان[٧] : « ونحن له مسلمون أى منقادون . لمّا ذكر الجواب بالفعل الّذى هو نعبد ، لأنّ العبادة متجدّدة دائمًا ، ذكر هذه الجملة الاسميّة المخبر عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الدّالّ على الثّبوت لأنّ الانقياد لا ينفكّون عنه دائمًا ، وعنه تكون العبادة فيكون قوله : ونحن له مسلمون أحد جملتى الجواب . فأجابوه بشيئين أحدهما الّذى سأل عنه . والثّانى مؤكّدٌ لما أجابوا به فيكون من باب الجواب المُرْبى على السّؤال . وأجاز بعضهم أن تكون الجملة حاليّة من الضّمير فى نعبد . والأوّل أبلغ وهو أن تكون الجملة معطوفة على قوله نعبد فيكون أحد شقّى الجواب » .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٢ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٠٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٩ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٠٣ .
(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٢ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٢٢ والكشّاف ١ / ٢٤٠ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٣ وانظر الكشّاف ١ / ٢٤٠ وتفسير الطّبرى ١ / ٤٣٩ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٩ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٤٠٣

عرفنا أنّ أم الاستفهاميّة تفيد معنى بل ومعنى همزة الاستفهام الإنكاريّ ، وعليه يكون الكلام متّصلاً ، لأنّه مبنيّ على سابقه ومترتّب عليه ومرتبطٌ به ، كما يكون منفصلاً لأنّ المقصود بالإضراب هنا الانتقال من شيءٍ إلى شيء . وقد تبيّنّا أنّ الآية الكريمة السّابقة قد قرّرت أنّ دين إبراهيم عليه السّلام وذرّيته هو الإسلام لله ربّ العالمين . ولمّا كان اليهود والنّصارى قد زعموا أنّ إبراهيم عليه السّلام وذرّيّته يهودٌ فى عرف اليهود ونصارى فى عرف النّصارى مع أنّ التّوراة الّتى يتّبعها اليهود والإنجيل الّذى يتّبعه النّصارى إنّما نزلا على موسى وعيسى عليهما السّلام اللّذين بُعِثا بعد إبراهيم عليه السّلام ، فقد كان فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها إنكارٌ شديدٌ على أهل الكتاب ، فى هيئة الاستفهام الإنكاريّ ، وكأنّ المعنى : أكنتم أيّها اليهود والنّصارى شهداء ، هكذا فى صيغة جمع شهيد الّتى تفيد المبالغة ، إذ حضر يعقوبَ عليه السّلام ابن إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام الموتُ ونزلت به أسبابه ومقدّماته ؟ وبما أنّهم لم يكونوا حاضرى يعقوب عليه السّلام إذ حلّت به طلائع الوفاة وبوادرها ، بل لم يكن المخاطبون ولا آباؤهم ولا أجدادهم معاصرين تلك الأحداث لأنّ اليهودية والنّصرانيّة لم تكونا قد وجدتا أصلاً ، فالمعنى إذن أنّهم لم يكونوا حاضرين حينما حضر يعقوب عليه السّلام الموت .

وانظر إلى تقديم المفعول به « يعقوب » للاهتمام به على الفاعل « الموت » وانظر إلى ما يجرى على لسان هذا النّبيّ الكريم الّذى اصطفاه الله سبحانه وتعالى بفيض من نعمه وابتلائه ، فكان الأسوة الحسنة فى مجال الشّكر على النّعماء والصّبر على الضّرّاء . وقد صوّرت سورة يوسف عليه السّلام ظواهر النّعم والابتلاء وخفاياهما . إنّ الّذى يجرى على لسانه عليه الصّلاة والسّلام مبيّن للمسألة المهمّة الوحيدة الّتى يهتمّ لها أنبياء الله تعالى ورسله ، ألا وهى مسألة العقيدة وتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له جلّ وعلا . ولننظر إلى هذا الدّليل البيّن على الحياتين الطيّبتين فى الأولى والآخرة اللّتين أكرم الله تعالى بهما يعقوب عليه السّلام . إنّه فى تلك اللّحظة الرّهيبة الّتى يشعر فيها بدنوّ أجله وتنزل به أسباب الموت ومقدّمات الوفاة ، هو بفضل الله تعالى الغاية فى رباطة الجأش وكمال الوعى وتمام الاطمئنان ، وهو كذلك بفضل الله تعالى الغاية فى الاهتمام لدين الإسلام

الّذى أرسل الله تعالى به كلّ الرّسل، وملّة التّوحيد الّتى أوصى بها إبراهيم عليه السّلام بنيه وفيهم يعقوب عليه السّلام ابن إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام . وانظر إلى إذ الثّانية المبدلة من الأولى فى القول : « إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى » إنّ الاهتمام الوحيد إنّما هو بدين الإسلام ، وإنّ هذا الاهتمام يتجلّى فى ذات اللّحظة الحرجة الّتى حلّت به عليه السّلام فيها أسباب الموت .

والمعروف أنّ أكثر النّاس مظنّة إصغاءٍ للدّاعية هم أبناؤه ، والمعروف كذلك أنّ أكثر المواقف احتمال قبولٍ للوصيّة فيها ، حينما تحلّ بالدّاعية أسباب الوفاة . وهذه المعانى تعمّقها الآيتان الكريمتان اللّتان تتحدّثان عن وصيّة إبراهيم ويعقوب عليهما السّلام .

ونتبيّن فى هذا السّؤال على لسان يعقوب عليه السّلام أبناءه : « ما تعبدون من بعدى » أنّه يتجاوز مرحلة الوصيّة الّتى أشارت إليها الآية الكريمة السّابقة إلى الرّغبة فى الوصول إلى مرحلة الاطمئنان إلى كون هؤلاء الأبناء على علمٍ أكيد وذُكرٍ شديد بوصيّة إبراهيم عليه السّلام ، بَلْ ترجمةٍ عمليّة لهذه الوصيّة ، واستمرارٍ بعد وفاة يعقوب على ما هم عليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . إنّ السّؤال يصدّر بما الّتى يسأل بها عن كلّ شىء ، والّتى تتّجه إلى غير العاقل أساسًا .

إنّ يعقوب عليه السّلام فى تلك اللّحظة الحرجة على عباد الله تعالى على درجةٍ عجيبةٍ من كمال الوعى ، وحُقّ له ذلك وهو النّبىّ المجتبى المختار ، يريد من بنيه أن يكون جوابهم الصّحيح نابعًا من ذوات أنفسهم ، ودون أن يكون من جانبه هو أىّ إيحاءٍ بالجواب وأدنى تأثيرٍ على أبنائه ، خاصّةً وأنّ هذا الأب المثالىّ فى عطفه على أبنائه لينصّ على الفترة الّتى يريد أن يطمئن على دينهم فى أثنائها ، إنّها الفترة الّتى تلى موته وقد حضرت يعقوب أمام أبنائه أسباب الموت ودلائل الوفاة .

وكان من أبناء يعقوب عليه السّلام الجواب الّذى يتمنّاه يعقوب عليه السّلام ويتمنّاه كلّ مسلمٍ لله ربّ العالمين لذرّيّته « قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهًا واحدًا ونحن له مسلمون » إنّ سؤال يعقوب كان فى هذه الصّيغة : « ما تعبدون من بعدى » وإنّ جواب الأبناء على غرار السّؤال ومن جنسه : « قالوا نعبد

إلٰهك » وكان الجواب متضمّنًا للمحافظة على وصيّة إبراهيم عليه السّلام لذرّيّته . وها هى ذى سلسلة النّسب الطّاهر الشّريف تذكر . ويبدأ الحديث بيعقوب عليه السّلام لأنّه هو السّائل ، ويذكر إبراهيم عليه السّلام بعد ذلك لأنّه هو الأصل ، ويليه إسماعيل عليه السّلام لأنّه أكبر سنًّا من أخيه إسحاق عليه السّلام الّذى جاء ذكره أخيرًا . والمعروف أنّ إسماعيل عليه السّلام يكبر إسحاق بأربعة عشر عامًا فيما يقال[١] « وجعل إسماعيل وهو عمّه من جملة آبائه لأنّ العمّ أب والخالة أمٌّ لانخراطهما فى سلكٍ واحدٍ وهو الأخوّة لا تفاوت بينهما . ومنه قوله عليه السّلام : عمّ الرّجل صنو أبيه ، أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوى[٢] النّخلة . وقال عليه الصّلاة والسّلام فى العبّاس : هذا بقيّة آبائى . وقال : ردّوا علىّ أبى فإنّى أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود »[٣] .

ولمّا جاء لفظ الإلٰه ، العائد إلى الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد ، مرّتين اثنتين فى القول « نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك » فقد جاء بعد ذلك القول : « إلٰهًا واحدًا » بقصد تعميق معنى التّوحيد ، وصرف ما قد يتبادر إلى الذّهن من جرّاء ذكر لفظ الإلٰه مرّتين اثنتين . وقد عرفنا أنّ « إلٰهًا » يصحّ أن يكون بدلاً من « إلٰهك » بدل النّكرة الموصوفة من المعرفة وكرّره لفائدة الصّفة بالوحدانيّة ، ويصحّ أن يكون حالاً . وفى كلتا الحالتين تتعمّق صفة التّوحيد وتتأكّد .

ولم يكتف الأبناء بالإجابة على السّؤال المطروح عليهم من والدهم الّذى يحتضر والّذى يسعده أن يسمع هذا الجواب من أبنائه ، إنّما تجاوزوا ذلك إلى ما يزيد ذلك الأب الرّحيم والنّبىّ الكريم سعادةً واطمئنانًا . إنّهم يتجاوزون حدود السّؤال إلى حدود الوصيّة الّتى وصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب كذلك . إنّها مرحلة الاستسلام لله ربّ العالمين « ونحن له مسلمون » والمعروف أنّ الإسلام يبدأ بالقول ظاهرًا وهذه أولى درجاته ،

---

(١) انظر تفسير القرطبىّ ص ٥٢٠ والبحر المحيط ١ / ٤٠٠ .

(٢) إذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصلٍ واحدٍ فكلّ واحدة منها صِنْو أو صُنْو بكسر الصّاد أو ضمّها .

(٣) الكشّاف ١ / ٢٤٠ .

وينتهى إلى الإسلام المطلق والاستسلام الكامل للذّات العليّة وهذه آخر درجاته ومنتهى غاياته . وهذه المرحلة الأخيرة هى الّتى نصّ عليها الأبناء ، وهى ولا شكّ المرحلة الّتى تقرّ بها عين يعقوب عليه السّلام ، وتهدأ نفسه ، ويطمئنّ قلبه ، ويرتاح فؤاده . ونستطيع أن نفهم من هذه الجملة الاسميّة الحاليّة « ونحن له مسلمون » الثّبات على هذه الحال . فالإسلام لله ربّ العالمين بمعنى الاستسلام له جلّ وعلا والانقياد له تعالى بالطّاعة والخلوص من الشّرك هو أوّل ما يهتمّ له ابناء يعقوب عليه السّلام وعليه يحرصون وهو كذلك الآخر .

الآيــة رقــم (١٣٤)

قال تعالى : ﴿ تلك أمّةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسْألون عمّا كانوا يعملون ﴾ .

خلت : مضت[١] وإنّما قيل للّذى قد مات فذهب قد خلا لتخلّيه من الدّنيا وانفراده بما كان من الأنس بأهله وقرنائه فى دنياه . وأصله من قولهم : خلا الرّجل إذا صار بالمكان الّذى لا أنيس له فيه وانفرد من النّاس ، فاستعمل ذلك فى الّذى يموت على ذلك الوجه[٢] والخلاء : المكان الّذى لا ساتر فيه من بناءٍ ومساكن وغيرهما[٣] .

ما : ظاهر ما أنّها موصولة . وحذف العائد أى لها ما كسبته . وجوّزوا أن تكون ما مصدريّة ، أى لها كسبها ، وكذلك ما فى قوله : ولكم ما كسبتم[٤] .

من العلماء من ذهب إلى كون الآية الكريمة تخاطب اليهود والنّصارى[٥] والآية وراء ذلك يصحّ أن تخاطب المسلمين لله ربّ العالمين ، بل إنّا نميل إلى كون الآية الكريمة تخاطب

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٨٦ ومعانى القرآن للأخفش ١ / ١٥٠ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٩ ومفردات الرّاغب الأصفهانى ص ١٥٨ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٩ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٠٤ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ١٥٨ (٤) البحر المحيط ١ / ٤٠٤ .

(٥) تفسير الطبرى ١ / ٤٣٩ والبحر المحيط ١ / ٤٠٤ .

المسلمين فى المقام الأوّل لأنّهم هم المنتفعون أساسًا ، مع شمولها لليهود والنّصارى باعتبار الحديث فى الآيات الكريمات السّابقات ذا علاقةٍ بهم على نحوٍ من الأنحاء .

والآية الكريمة تقرّر أنّ إبراهيم عليه السّلام وذرّيّته ، وفيهم الصّالحون وفيهم دون ذلك أمّةٌ من الأمم الّتى مضت ، وجماعةٌ من الجماعات الّتى انقرضت ، لها ما كسبت من حسنات بسبب فعلها الخير ، وعليها ما اكتسبت من سيّئات بسبب فعلها الشّرّ ، وأنتم أيّها المخاطبون ، المسلمون لله ربّ العالمين فى المقام الأوّل ، المستفيدون من هذه التّوجيهات الرّبّانيّة والتّعاليم السّماوية لكم أيضًا ما كسبتم من حسنات وخير ، وعليكم ما اكتسبتم من سيّئات وشرّ ، لكم ثواب الحسنات كالسّابقين سواءً بسواء ، وعليكم عقاب السّيّئات . وأنتم أيّها المخاطبون وراء ذلك لا تسألون عمّا كانوا يعملون من حسنات وسيّئات ، وقياسًا على ذلك هم لا يُسْألون عمّا تعملون من حسنات وسيّئات ، إنّ حسناتهم لا تنفعكم وإنّ سيّئاتهم لا تضرّكم ، وفى المقابل لا تنفعهم حسناتكم ولا تضرّهم سيّئاتكم . وهذا المعنى يبيّنه قوله تعالى[1] : ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾ وروى أنّ النّبىّ ﷺ قال : يا بنى هاشم لا يأتينى النّاس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم . يا فاطمة لا أغنى عنك من الله شيئًا[2] وجاء فى الأثر : من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه[3] .

الآيــة رقــم (١٣٥)

قال تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا . قل بل مِلَّةَ إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ .

سبب النّزول .

قال ابن إسحاق عن ابن عبّاس قال . قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلاّ ما نحن عليه فاتّبعنا يا محمّد تهتد . وقالت النّصارى مثل ذلك فأنزل الله عزّ

---

(١) سورة فاطر ١٨

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٠٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٨٦ .

وجلّ فيهم : وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين[١] .

قالوا : الضّمير عائدٌ فى قالوا على رؤساء اليهود الّذين كانوا بالمدينة وعلى نصارى نجران . وفيهم نزلت ، كعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف ووهب وأبىّ بن ياس بن أخطب والسّيّد والعاقب وأصحابهما خاصموا المسلمين فى الدّين ، كلّ فرقةٍ تزعم أنّها أحقّ بدين الله من غيرها فأخبر الله عنهم وردّ عليهم[٢] .

بل ملّة إبراهيم : قرأ الجمهور بنصب ملّة بإضمار فعل[٣] أى قل يا محمّد بل نتّبع ملّة[٤] وكان فى قوله : بل ملّة إبراهيم دليلٌ على أنّ ملّته مخالفةٌ لملّة اليهود والنّصارى ، ولذلك أضرب ببل عنهما . فثبت أنّه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا[٥] .

حنيفا : الحَنَفُ هو ميلٌ عن الضّلال إلى الاستقامة ، والجَنَف ميلٌ عن الاستقامة إلى الضّلال ، والحنيف هو المائل إلى ذلك . قال عزّ وجلّ : قانتًا لله حنيفًا . وقال : حنيفًا مسلمًا ، وجمعه حُنَفاء . قال عزّ وجلّ : واجتنبوا قول الزّور حنفاء لله . وتحنّف فلانٌ أى تحرّى طريق الاستقامة . وسمّت العرب كلّ من حجّ أو اختتن حنيفًا تنبيهًا أنّه على دين إبراهيم عليه السلام[٦] « وحنيفًا : مائلاً عن الأديان المكروهة إلى الحقّ دين إبراهيم . وهو فى موضع نَصْب على الحال ، قاله الزّجّاج . أى بل نتّبع ملّة إبراهيم فى هذه الحالة .... وسمّى إبراهيم حنيفًا لأنّه حَنِفَ إلى دين الله وهو الإسلام . والحنف الميل ومنه رجلٌ حنفاء . ورجلٌ أحنف ، وهو الّذى تميل قدماه ، كلّ واحدةٍ منهما إلى أختها بأصابعها[٧] ..... وقال قوم : الحنف الاستقامة . فسمّى دين إبراهيم حنيفًا لاستقامته . وسمّى المعوجّ الرّجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة . كما قيل للّديغ سليم وللمهلكة مفازة فى قول

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٠ وتفسير ابن كثير ١ / ١٨٦ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٠٥ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٠٥ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٨٢ .
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٤ وانظر تفصيل المسألة فى تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٠ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٤٠٦ (٦) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ١٣٣ .
(٧) انظر معجم مقاييس اللّغة « حنف » ٢ / ١١٠ .

أكثرهم »[١] وقد أجاد أبو حيّان التّعبير عن رأى الطّبرىّ[٢] فى الحكمة من اختصاص إبراهيم عليه السّلام بهذا النّعت يقول[٣] : « وإنّما خصّ إبراهيم دون غيره من الأنبياء وإن كانوا كلّهم مائلين إلى الحقّ مستقيمى الطّريقة حنفاء لأنّ الله اختصّ إبراهيم بالإمامة لما سنّه من مناسك الحجّ والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام ممّا يقتدى به إلى قيام السّاعة . وصارت الحنيفيّة علمًا مميّزًا بين المؤمن والكافر ، وسمّى بالحنيف من اتّبعه واستقام على هديه ، وسمّى المُنْكِث عن ملّته بسائر أسماء الملل فقيل يهودىّ ونصرانىّ ومجوسىّ وغير ذلك من ضروب النّحل » .

وما كان من المشركين : تعريضٌ بأهل الكتاب وغيرهم لأنّ كلاً منهم يدّعى اتّباع إبراهيم وهو على الشّرك[٤] وكانت العرب ممّن تدين بأشياء من دين إبراهيم ثمّ كانت تشرك فنفى الله عن إبراهيم أن يكون من المشركين [٥] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ كلاً من اليهود والنّصارى تطلب من المسلمين أن يكونوا يهودًا فى عرف اليهود أو أن يكونوا نصارى فى عرف النّصارى إن كان المسلمون يريدون أن يهتدوا ، ومن باب الأَوْلى أن يطلبوا ذلك من غير المسلمين . وسبق أن بيّنت الآية الكريمة الحادية عشرة بعد المائة من هذه السّورة الكريمة زعم اليهود والنّصارى أنّهم هم الّذين سيدخلون الجنّة وحدهم ، كما بيّنت الآية الكريمة الثّالثة عشرة بعد المائة زعم اليهود بأنّ النّصارى ليسوا على شىءٍ يعتدّ به فى مجال الدّين وزعم النّصارى بأنّ اليهود ليسوا على شىءٍ يعتدّ به فى مجال الدّين كذلك ، كما بيّنت الآية الكريمة العشرون بعد المائة أنّ اليهود والنّصارى لن يرضيهم سوى أن يتحوّل المسلمون ــ لا سمح الله ــ يهودًا كى يرضى عنهم اليهود أو نصارى كى يرضى عنهم النّصارى . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقرّر إحدى الخطوات الّتى اتّخذها كلٌّ من اليهود والنّصارى فى سبيل الوصول إلى غاياتهم الخسيسة وأهدافهم الدّنيئة بأن يرتدّ المسلمون ــ لا سمح الله تعالى ــ عن دين الإسلام

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٠ والبحر المحيط ١ / ٣٩٨ و ٤٠٦ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤١
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٠٦ .
(٤) الكشّاف ١ / ٢٤١
(٥) البحر المحيط ١ / ٤٠٦ .

الّذى رضيه الله تعالى لعباده وأن يتحوّلوا يهودًا كى يرضى عنهم اليهود أو نصارى كى يرضى عنهم النّصارى ، ومعروفٌ أنّ فى إرضاء أحد الفريقين إغضابًا للفريق الآخر . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ يهود المدينة المنوّرة ونصارى نجران ، يطلبون على لسان رؤساء اليهود وأحبارهم ، وعلى لسان رهبان النّصارى بأن يكونوا هودًا أو نصارى كى يهتدوا . « وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا » وسبق أن ردّت الآية الكريمة العشرون بعد المائة على كلٍّ من اليهود والنّصارى . قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ، قل إنّ هدى الله هو الهدى . ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العِلْم مالك من الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ وفى هذه الآية الكريمة يجىء الرّدّ الفورىّ على كلٍّ من اليهود والنّصارى : « قل بل ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين » وهذا الرّدّ ذو شقّين . الشّقّ الأوّل ويمثّله القول « قل بل ملّة إبراهيم حنيفًا » وفيه الرّدّ على زعم اليهود والنّصارى أنّهم مهتدون . إنّ ربّ العزّة يأمر محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى يدعوه كلٌّ من اليهود والنّصارى إلى اليهوديّة والنّصرانيّة ، وإنّ أمّته ﷺ تبعٌ له فى الأمر من الله تعالى فى القول : بل ملّة إبراهيم حنيفًا .

ويبدأ هذا الشّقّ بالقول : بل . وفيها الإضراب عن كلّ ما يقول اليهود والنّصارى من زعمٍ بأنّهم على الهدى ، يلى ذلك وضع البديل الصّحيح وهو اتّباع ملّة إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء والمجمع عليه من قبل كلّ أرباب الدّيانات السّماويّة ، وفيها اليهوديّة والنّصرانيّة على كونه ﷺ الإمام الّذى يؤتمّ ويقتدى به . ويجىء لفظ حنيفًا حالاً من إبراهيم ، ومعناه أنّ إبراهيم عليه السّلام بإيحاءٍ من الله تعالى قد مال عن كلّ الدّيانات الضّالّة إلى الدّين القويم والصّراط المستقيم إلى دين الإسلام والحنيفيّة السّمحة . والمعروف أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ قد بعثه الله تعالى بحنيفيّة إبراهيم عليه السّلام السّمحة الكاملة الّتى يشبه ليلها نهارها . وفى قوله تعالى ﴿ بل ملّة إبراهيم ﴾ دليل على أنّ ملّته مخالفةٌ لملّة اليهود والنّصارى ، ولذلك أضرب ببل عنهما . فثبت أنّه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا[1] ، وفى قوله تعالى[2] : ﴿ قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ دليلٌ على أنّ هدى الله تعالى الّذى بعث

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٠٦ .

(٢) سورة البقرة ١٢٠ .

به كلاً من إبراهيم ومحمّد ﷺ هو الهدى .

أمّا الشّق الثّانى من الرّدّ على اليهود والنّصارى فإنّه يتمثّل فى القول عن إبراهيم عليه السّلام : « وما كان من المشركين » وفى هذا القول تجاوزٌ لنفى الهدى الّذى نسبه اليهود والنّصارى لأنفسهم إلى إثبات الضّلال عن طريق التّعريض بشركهم وشرك عرب الجزيرة العربيّة قبل الإسلام الّذين لم يتمسّكوا من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام إلاّ بالأقلّ من القليل الّذى انحرفوا به هو الآخر عن مساره الصّحيح . وكان هذا التّعريض بشرك القوم عن طريق نفى الشّرك عن إبراهيم عليه السّلام : « وما كان من المشركين » وفى غير هذا الموضع من القرآن الكريم نصادف عن كلٍّ من اليهود والنّصارى قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون ﴾ .

الآيــة رقــم (١٣٦)

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النّبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

سبب النّزول .

خرّج البخارىّ عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التّوراة بالعبرانيّة ويفسّرونها بالعربيّة لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم ولكن قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا الآية . فإن كان حقًّا لم تكذّبوه ، وإن كان كذبًا لم تصدّقوه[2] .

« والأسباط : ولد يعقوب عليه السّلام وهم اثنا عشر ولدًا ، وُلِدِ لكلّ واحدٍ منهم أمّةٌ

---

(١) سورة التّوبة ٣٠ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٠٧ وتفسير القرطبىّ ص ٥٢٤ وتفسير ابن كثير ١ / ١٨٧ .

من النّاس واحدهم سبط . والسّبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل . وسمّوا الأسباط من السَّبْط وهو التّتابع ، فهم جماعةٌ متتابعون .... والسِّبط الجماعة والقبيلة الرّاجعون إلى أصلٍ واحد »[١] وجاء فى تفسير الطّبرىّ[٢] : « والأسباط وهم الأنبياء من ولد يعقوب » ويقول أبو حيّان[٣] : « قالوا و لم ينزل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعطفوا على إبراهيم لأنّهم كلّفوا العمل به والدّعاء إليه ، فأضيف الإنزال إليهم كما أضيف فى قوله : وما أنزل إلينا » ويقول الرّاغب[٤] : « أَصْلُ السَّبْط انبساطٌ فى سهولة . يقال : شَعْرٌ سَبْطٌ وسَبِطٌ وقد سَبِطَ سُبوطًا وسَباطةً وسَباطًا وامرأةٌ سَبْطةُ الخِلْقة ورجلٌ سَبْطُ الكفّين ممتدُّهما ويعبَّر به عن الجود . والسِّبط ولد الوَلد كأنّه امتدادُ الفروع » .

أحد : فى معنى الجماعة ولذلك صحّ دخول بين عليه[٥] .

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة : ﴿ تلك أمّةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ﴾ يصح أن يتّجه الخطاب فيها إلى اليهود والنّصارى وإلى غيرهم ، المسلمين بخاصّة ، فإنّ هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها يتّجه فيها الخطاب إلى المسلمين بخاصّة .

إنّ ربّ العزّة يأمرنا نحن المسلمين : أن نقول لليهود والنّصارى بخاصّة ، الّذين جاء على لسانهم القول خطابًا للمسلمين : « كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا » يأمرنا ربّ العزّة أن نقول لهم : « آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النّبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون » وأوّل ما يصحّ التّنبيه عليه هو وجه الشّبه الكبير بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الرّابعة والثّمانين من سورة آل عمران . قال تعالى : ﴿ قل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتِى موسى

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٥ وانظر الكشّاف ١ / ٢٤١ والبحر المحيط ١ / ٣٩٨ ، ٤٠٧ .
(٢) ١ / ٤٤٢ (٣) البحر المحيط ١ / ٤٠٧ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٢٢٢ (٥) الكشّاف ١ / ٢٤١ .

وعيسى والنّبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وفى الإمكان أن نشير فى هيئة نقاط إلى ما يلاحظ على نظم الآية الكريمة من مظاهر الإعجاز .

أوّلاً : تبدأ الآية الكريمة بالنّصّ على الإيمان وتنتهى بتقرير الإسلام لله ربّ العالمين بمعنى الاستسلام لمشيئة الله تعالى وإرادته . وهذا المستوى من الإسلام لله ربّ العالمين يمثّل الثّمرة اليانعة للإيمان الّذى أشار إليه صدر الآية الكريمة . فالآية الكريمة تجمع بين الإيمان وثمرته أعنى الإسلام لله ربّ العالمين .

ثانيًا : تنصّ الآية الكريمة على الإيمان بالله تعالى ابتداءً . لأنّ ذلك أصل الشّرائع[١] .

ثالثًا : نصّت الآية الكريمة بعد ذلك على الإيمان بما أنزل الله تعالى على محمّد بن عبد الله ﷺ من كتابٍ عزيز وقرآن مجيد . وكان تقديم هذا الكتاب العزيز فى الذّكر لأنّ المخاطبين هم المستفيدون منه فى المقام الأوّل . ولأجل هذه الحكمة كان التّعبير فى هذه الصّيغة « وما أنزل إلينا » وإنّما نزل بالقرآن الكريم رسولٌ من الملائكة كريم على قلب رسولٍ من البشر كريم ، هو محمّد بن عبد الله ﷺ .

رابعًا : وكان النّصّ بعد ذلك على ما أنزل الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام من صحائف عشر[٢] لأنّه عليه الصّلاة والسّلام أبو الأنبياء ، ولأنّ كلّ الطّوائف مجمعةٌ على صحّة دينه عليه الصّلاة والسّلام ، ولأنّ القرآن الكريم قد نصّ فى سورة الممتحنة[٣] على أنّ لنا نحن المسلمين فى إبراهيم عليه السّلام أسوة حسنة . والمعروف أنّ هذه الأسوة الحسنة قد تجسّدت لنا نحن المسلمين فى محمّد بن عبد الله ﷺ . قال تعالى[٤] : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

خامسًا : عطف على إبراهيم عليه السّلام ذرّيّته . وابتدأ الحديث بإسماعيل عليه السّلام لأنّه أكبر أبنائه ، وجاء بعده إسحاق عليه السّلام الّذى يصغره بأربعة عشر عامًا ، ثم يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام ثمّ الأسباط ، وهم أبناء يعقوب عليه السّلام

---

(١) انظر البحر المحيط ١ / ٤٠٨ .
(٢) انظر البحر المحيط ١ / ٤٠٧ .
(٣) الآية ٤ ، ٦
(٤) سورة الأحزاب ٢١ .

الاثنا عشر ، وفيهم يوسف عليه السّلام .

سادسًا : جاء التّعبير مرّتين اثنتين فى هذه الصّيغة : « وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ... » وسيجىء التّعبير بعد ذلك مرّتين اثنتين كذلك على هذا النّحو : « وما أوتى » .

سابعًا : « جاء وما أنزل إلينا . وجاء : وما أوتى موسى وعيسى تنويعًا فى الكلام وتصرّفًا فى ألفاظه وإن كان المعنى واحدًا ، إذ لو كان كلّه بلفظ الإيتاء أو بلفظ الإنزال لما كان فيه حلاوة التّنوّع فى الألفاظ »[١] .

ثامنًا : جاء فى القول : « وما أوتى موسى وعيسى » موسى متقدّمًا على عيسى بسبب التّقدّم فى الزّمن . ولم يتكرّر القول « وما أوتى عيسى » لأنّ رسالة عيسى عليه السّلام مكملةٌ لرسالة موسى عليه السّلام ومتممّةٌ لها وإنّما جاء عيسى عليه السّلام مصدّقًا لما فى التّوراة لم ينسخ منها إلاّ نزرًا يسيرا[٢] .

تاسعًا : جاء الإنزال للمرّة الأولى متعلّقًا بمخصوص « وما أنزل إلينا » وكذلك جاء الإيتاء « وما أوتى موسى وعيسى » وجاء العطف فى المرّتين جمعًا . « وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ..... » « وما أوتى النبيّون من ربّهم »[٣] .

عاشرًا : نتبيّن فى لفظ الرّبّ فى القول : « وما أوتى النّبيّون من ربّهم » جوّ الرّضا والامتنان . فالمعروف أنّ هذا اللّفظ يشير إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ووجوب شكر العباد لله تعالى على تلك النّعم والآلاء . وإنّ لفظ الرّب يوحى بأنّ الجوّ كلّه عطرٌ بشذا الشّكر لله تعالى مربّى العباد بنعمه وآلائه .

حادى عشر : آتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام التّوراة والآيات التّسع البيّنات وغيرها من الآيات ، وآتى الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السّلام الإنجيل والآيات البيّنات ومنها القدرة بإذن الله تعالى على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . وآتى الله سبحانه وتعالى أنبياءه آياته البيّنات .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٠٨

(٢) انظر البحر المحيط ١ / ٤٠٨ .

(٣) انظر البحر المحيط ١ / ٤٠٨ .

ثانى عشر : تنصّ الآية الكريمة على أنّ المسلمين لا يفرّقون بين أحدٍ من رسله . وفى ذلك تعريضٌ باليهود الّذين يكفرون برسالة عيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام ، وتعريضٌ بالنّصارى الّذين يكفرون برسالة محمّد ﷺ . وهذا القول : « لا نفرّق بين أحدٍ منهم » يأخذ بسبب من مثل قوله تعالى[1] : ﴿ إنّ الّذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقًّا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا . والّذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم . وكان الله غفورًا رحيما ﴾ .

ثالث عشر : يسيطر على هذا القسم من السّورة الكريمة جوّ الإسلام لله ربّ العالمين بمعنى الاستسلام له جلّ وعلا ، وإنّ لهذه الآية الكريمة حظّها الموفور من هذا المعنى فهى تختم بالقول : « ونحن له مسلمون » وهذا الإسلام الّذى تختم به الآية الكريمة هو ثمرة الإيمان الّذى صدّرت به الآية الكريمة ، فالآية الكريمة تبدأ بالإيمان وتنتهى بالإسلام . وإنّ وجود الإيمان يعنى وجود الإسلام قبله وهو الإعلان باللّسان . والمعروف أنّ الإيمان يسبقه إعلان الإسلام باللّسان ويليه الاستسلام المطلق لله تعالى الّذى له وحده لا شريك له الخلق والأمر[2] .

الآيــة رقــم (١٣٧)

قال تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم ﴾ .

سبب النّزول .

لمّا نزل قوله : قولوا آمنّا بالله قرأها رسول الله ﷺ على اليهود والنّصارى وقال : الله

---

(١) سورة النّساء ١٥٠ — ١٥٢ .

(٢) إفادتنا كبيرة فى تأمّلنا لهذه الآية الكريمة ممّا كتبه فى البحر المحيط أبو حيّان رحمه الله تعالى رحمةً واسعة .

أمرنى بهذا . فلمّا سمعوا بذكر عيسى أنكروا وكفروا . وقالت النّصارى : إنّ عيسى ليس بمنزلة سائر الأنبياء ولكنّه ابن الله تعالى فأنزل الله : فإن آمنوا . الآية[١] .

وإن تولّوا : أى وإن أعرضوا عن الدّخول فى الإيمان[٢] .

فى شقاق : الشّين والقاف أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلّ على انصداعٍ فى الشّىء ثمّ يحمل عليه ويشتقّ منه على معنى الاستعارة . تقول : شققت الشّىء أشقّه شقًّا إذا صدعته .... ومن الباب الشّقاق[٣] والشّقاق : المخالفة وكونك فى شقٍّ غير شقّ صاحبك ، أو من شقّ العصا بينك وبينه . قال : وإن خفتم شقاق بينهما . فإنّما هم فى شقاق أى مخالفة . لا يجرمنّكم شقاق . لفى شِقاقٍ بعيد . ومن يشاقق الله ورسوله . أى صار فى شقٍّ غيرِ شقّ أوليائه[٤] وقيل إنّ الشّقاق مأخوذ من فعل ما يشقّ ويصعب ، فكأنّ كلَّ واحدٍ من الفريقين يحرص على ما يشقّ على صاحبه[٥] .

الكفاية : ما فيه سدّ الخَلّة[٦] وبلوغ المراد فى الأمر . قال : وكفى الله المؤمنين القتال . إنّا كفيناك المستهزئين[٧] قال الشّاعر :

فلو أنّما أسعى لأدنى معيشةٍ كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال

أى أغنانى قليلٌ من المال[٨] وعطف الجملة بالفاء مشعرٌ بتعقّب الكفاية عقيب شقاقهم . والمجىء بالسّين يدلّ على قرب الاستقبال ، إذ السّين فى وَضْعِها أقرب فى التّنفيس من سوف[٩] .

طلب اليهود من المؤمنين أن يكونوا يهودًا إن أرادوا الهداية ، وطلب النّصارى من المؤمنين أن يكونوا نصارى إن أرادوا الهداية ، وردّ القرآن الكريم عليهم فورًا وذلك بمخاطبة المصطفى ﷺ وأمره أن يقول لهم : بل نتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا ، وبمخاطبة المؤمنين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلم بأنّهم

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٠٩ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤١٠ وتفسير الطّبرى ١ / ٤٤٣ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة « شق » ٣ / ١٧٠ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٢٦٤ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٧ والبحر المحيط ١ / ٣٩٨ .
(٦) الخلّة بفتح الخاء الحاجة والفقر
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٣٧ .
(٨) البحر المحيط ١ / ٣٩٨
(٩) البحر المحيط ١ / ٤١١ .

يؤمنون بكلّ أنبياء الله تعالى ورسله وبكلّ ما آتاهم الله تعالى من وحيٍ سماوىّ وآياتٍ بيّنات ولا يفرّقون بين أحدٍ من أنبياء الله تعالى ورسله ، على المؤمنين أن يقولوا ذلك وعلى أهل الكتاب أن يعلموا ذلك جيّداً . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تطلب من أهل الكتاب أن يؤمنوا بما آمن به المسلمون الّذين لا يفرّقون بين أحدٍ من أنبياء الله تعالى ورسله . فعلى اليهود أن يؤمنوا بعيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام وبما أوحى الله تعالى إليهما وبما آتاهما من آياتٍ بيّنات . وعلى النّصارى أن يؤمنوا بمحمّد بن عبد الله ﷺ وبما أنزل الله تعالى إليه من كتابٍ عزيز وحكمة ، إنّ هذا النّوع من الإيمان الّذى يشترط الإيمان بكلّ أنبياء الله تعالى ورسله هو الّذى يتحقّق به وحده الهدى لكلٍّ من اليهود والنّصارى وغيرهما من الأمم . قال تعالى مخاطبًا المؤمنين : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ وعليه لا يكون قول اليهود والنّصارى للمؤمنين بأنّ عليهم أن يكونوا هودًا أو نصارى إن أرادوا أن يهتدوا ، لا يكون ذلك القول من الهدى فى شىءٍ خلافًا لزعمهم الّذى ذكرته الآية الكريمة : « وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا » وحينما لا يكون ما يقوله كلٌّ من اليهود والنّصارى هدًى بنصّ القرآن الكريم ، فإنّه إنّما يكون ضلالاً فعلى المسلمين فى كلّ زمانٍ ومكان أن يأخذوا حذرهم .

وقد عبّرت الآية الكريمة عن اليهود والنّصارى حينما لا يؤمن اليهود برسالة عيسى ومحمّد ﷺ ، وحينما لا يؤمن النّصارى برسالة محمّد ﷺ ، بأنّ القوم إنّما هم فى شقاق . وسبق أن عرفنا الأصل اللّغوىّ الّذى اشتقّ منه هذا اللّفظ وما يصحّ أن يتفرّع عنه من معانٍ تعود فى مجموعها إلى المخالفة وإلى فعل ما يشقّ ويصعب على الآخرين ، بحيث إنّه يصحّ أن يقال إنّ من معانى الشّقاق المخالفة والمنازعة والمجادلة والمعاداة والفراق .

وانظر إلى تعبير الآية الكريمة عن ضلال القوم ومخالفتهم حينما يتولّون عن الحقّ ويعرضون عن الصّراط المستقيم متّجهين إلى الضّلال والباطل : « وإن تولّوا فإنّما هم فى شقاق » إنّ القوم إنّما يعيشون فى أعماق الشّقاق ويتقلّبون فى شقائه وعليه : « فالشّقاق مستولٍ عليهم من جميع جوانبهم ومحيطٌ بهما إحاطة البيت بمن فيه . وهذه مبالغة فى الشّقاق الحاصل لهم بالتّولّى . وهذا كقوله : إنّا لنراك فى ضلالٍ مبين . إنّا لنراك فى سفاهة . هو

أبلغ من قولك زيدٌ مشاقٌّ لعمرو ، وزيدٌ ضالٌّ وبكرٌ سفيه . والشّقاق هنا الخلاف ، قاله ابن عبّاس »[١] ويتّضح الشّقاق البعيد الّذى فيه القوم بأبعاده السّحيقة حينما نقارنه بالهداية الّتى كان سيصل القوم إلى إعماقها لو أنّهم لم يفرّقوا بين أحدٍ من رسله عزّ وجلّ ، وقد تضمّن الحديث عن الهداية حرف « قد » الّذى يفيد التّحقيق : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما هم فى شقاق » . وحينما يكون القوم فى شقاق فإنّهم لا يكونون فى غيره . وبما أنّ القوم محصورون فى حالة الشّقاق هذه مقصورون على صفة الضّلال تلك والعدوان والظلم والبغى وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ فقد جاء فى الآية الكريمة على الفور الوعد من الله تعالى بحماية رسوله الكريم وكفايته ونصره وتأييده . قال تعالى : ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم ﴾ .

وسبق أن تبيّنّا أنّ الفاء العاطفة تفيد مجيء الكفاية عقب شقاق القوم مباشرة لأنّ الفاء تفيد التّرتيب مع التعقيب . ويعمّق هذه الفوريّة مجيء السّين الّتى تفيد المستقبل القريب وليس سوف الّتى تفيد المستقبل البعيد . ويقابل عموم شقاق القوم ومخالفاتهم لفظ الجلالة « الله » الّذى يعمّق شقاق القوم لأنه يستعمل عادةً فى مواقف العموم . وهذه الكفاية من الله سبحانه وتعالى تتمشّى مع عصمة الله تعالى رسوله الكريم وقد قال عزّ من قائل[٣] ﴿ والله يعصمك من النّاس ﴾ .

وتختم الآية الكريمة بتقرير صفتين للذّات العليّة « وهو السّميع العليم » وهاتان الصّفتان تتمشّيان مع شقاق القوم ومتعلّقاته . فالله سبحانه وتعالى السّميع لأقوال اليهود والنّصارى الّذين يشاقّون الله ورسوله بخاصّة ، النّاس بعامّة ، العليم بنوايا القوم ، وأفعالهم ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

ونحن نتأمّل هذه الآية الكريمة لا نستطيع إلاّ أن نقف بإجلال وخشوع أمام إعجازها الصّوتىّ الّذى يتجلّى فى سلاسة القول « فسيكفيكهم الله » وعذوبته . وأين هى اللّغة

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤١٠ (٢) سورة غافر ٥١ .
(٣) سورة المائدة ٦٧ .

الّتى تستطيع أن تجارى العربيّة فى هذه الميزة ؟ وأين هى اللّغة الّتى يتجلّى فيها الاختزال فى النّطق ــ وفى الكتابة أيضًا ــ مع الفيض فى المعانى والتّلاؤم الصّوتىّ كالّذى يتجلّى فى اللّغة العربيّة ؟ إنّنا من حيث المعنى بشأن قوله تعالى ﴿ فسيكفيهم الله ﴾ بصدد الفاء الّتى تفيد التّرتيب مع التعقيب ، وبصدد السّين الّتى تفيد المستقبل القريب ، فهى معمّقةٌ لمعنى الفاء مقوّيّة له . ونحن كذلك بصدد الفعل المضارع « يكفى » الّذى يتعدّى إلى مفعولين ، أحدهما كاف الخطاب العائد إلى المصطفى ﷺ وآخرهما « هم » والمعروف أنّ اسم الضّمير الهاء هو المفعول وأمّا الميم فإنّها علامة الجمع . والملاحظ أنّ المفعولين تقدّما على الفاعل . والفاعل هنا هو لفظ الجلالة « الله » وأين هى اللغة الّتى تستطيع أن تجارى اللّغة العربيّة فى خاصّيّتها العظيمة المتعلّقة بعلم النّحو وبظاهرة الإعراب الّتى لها دور كبيرٌ فى حرّيّة حركة الألفاظ فى الجملة أو العبارة تقديمًا أو تأخيرًا مع احتفاظ اللّفظة بموقعها المعنوىّ فى الجملة ودورها النحوى فيها ؟

فإذا تجاوزنا الاختزال فى النّطق والحشد فى المعانى إلى ظاهرة تلاؤم الأصوات فى القول : « فسيكفيكهم الله » تبيّنّا الانسياب الصّوتىّ فى قمّته والتّلاؤم الصّوتىّ فى أوجه . إنّك لو اعتبرت الكلام كلّه : « فسيكفيكهم الله » وحدةً صوتيّة ، فإنّ هذا حقٌّ لك ، لأنّ التّرابط المعنوىّ والصّوتىّ غايةٌ فى القوّة ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ لفظ الجلالة « الله » المستقلّ بذاته فى الجملة جزءٌ أصيلٌ منها ، بل إنّ حقّه التّقديم على المفعول بل على المفعولين ، فإذا تأخّر الفاعل ، فذلك دليلٌ على ترابط الجملة القوىّ الأكيد . ويرتبط بهذا التّماسك المعنوىّ ترابطٌ صوتىّ منسجم متناغم وكأنّ ثمّة شيئًا واحدًا لا أشياء متعدّدة ومتنوّعة . وإنّك لو اعتبرت الكلام : « فسيكفيكهم الله » وحداتٍ صوتيّة جائزة الانفصال مع جواز كمال الاتّصال ، فإنّ هذا حقّ لك أيضًا ، فأنت مثلاً تستطيع أن تعتبر الكلام مؤلّفًا من واحدات صوتيّةٍ ثلاثٍ متجانسة ، ويمكن أن تكون الأولى فسيكفى . ويمكن أن تكون الثّانية : كهم . وتكون الثّالثة : « الله » وإنّ المسغف على اعتبار « فسيكفيكهم » وحدتين صوتيّتين هو الياء الممدودة فى نهاية الوحدة الصّوتيّة الأولى : « فسيكفى » بحيث إنّك حينما تنطق هذه الوحدة الصّوتيّة وتصل إلى الياء كأنّك

بسبب مدّ الياء فى حكم من انتهى ووقف ، وليس ثمّة انتهاءٌ حقيقىٌّ ولا وقف ، وإنّ الّذى يقوّى من عدم الانتهاء الحقيقىّ أو الوقف كون الوحدة الصّوتيّة الثّالثة والأخيرة والّتى تتجلّى فى لفظ الجلالة « الله » لا يصحّ أن تنطق إلاّ موصولةً بالوحدتين الصّوتيّتين السّابقتين ، ومن مجموع كمال الاتّصال المعنوىّ ، وجواز الانفصال مع كمال الاتّصال الصّوتىّ ينجم السّحر العجيب واللّطف الغريب فى أثناء تلاوتك أو سماعك لهذا القول فى الآية الكريمة المتعدّد الوحدات المعنويّة والصّوتيّة « فسيكفيكهم الله » فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شىء ، الّذى لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وبما أنّ الوحدتين الصّوتيّتين الأخيرتين متلازمتان ففى الإمكان أن ننظر إلى هذا القول صوتيًّا من وجهةٍ أخرى . ففى الإمكان أن نعتبر الوحدتين الأخيرتين وحدة صوتيَّة واحدة ، وعليه تكون الوحدتان الصّوتيّتان فى الصّورة الجديدة على النّحو التّالى

فسيكفى كهمُ الله

فإذا حالنا ضبط حروف هاتين الوحدتين الصّوتيّتين وفق طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدى تبيّنّا الصّورة التّالية وفق الكتابة .

الصّوتيّة فسيكفى كهمللاه

ـ ـ ـ ـ ٥ ـ ٥ ـ ـ ـ ٥ ـ ٥ ٥

وهذا هو ضبطها بالحركة والسّكون وبهذا يتبيّن أنّنا فى الوحدة الصّوتيّة الأولى أمام ستّة أحرف منطوقة وفى الوحدة الصّوتيّة الثّانية أمام سبعة أحرف منطوقة .

فإذا تعاملنا مع هاتين الوحدتين الصّوتيّتين وفق نظام المقاطع الصّوتيّة . والمعروف أنّ ثمّة ثلاثة مقاطع صوتيّة الصّغير أو القصير وهو عبارة عن حركة ، والمتوسط وهو عبارة عن حركة وسكون ،

والطويل وهو عبارة عن حركة وسكونين وهذا لا يكون إلاّ عند نهاية كلام يسكت عنده ، تبيّنا نتيجةً لطيفةً هى أنّ كلاً من الوحدتين الصّوتيّتين تتكوّن من أربعة مقاطع صوتيّة بالتّمام والكمال . وهذه هى المقاطع وهذا ما يقابلها من رموز .

ف	س	يك	فى	ك	ه	مل	لاه
—	—	٥	—	—	٥	—	٩
١	٢	٣	٤	١	٢	٣	٤

والمعروف أنّ المقطع القصير هذا رمزه « — » وأنّ المقطع المتوسّط هذا رمزه « ٥ » وأنّ المقطع الطّويل هذا رمزه « ٩ » .

وبالنّظر إلى الوحدتين الصّوتيّتين يتبيّن أنّهما تتفقان فى المقاطع الثّلاثة الأولى ، وأنّ الاختلاف يتركّز فى المقطع الصّوتىّ الأخير .

وبالمقارنة بين هذين المقطعين الصّوتيّين « فى » « لاه » يتبيّن بسبب تطرّف حرف الهاء المسبوق بالألف الممدودة ، أنّ الفرق بين المقطعين لا يكاد يبين « فى » « لاه » .

الآيــة رقــم (١٣٨)

قال تعالى : ﴿ صِبْغَةَ الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ .

صبغة الله : أى دين الله . قاله ابن عبّاس[١] وهذا بدلٌ من ملّة[٢] وقيل إنّه مصدر

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤١١ وتفسير ابن كثير ١ / ١٨٨ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٢٤٥ وتفسير القرطبى ص ٥٢٨ ومعانى القرآن للأخفش ١ / ١٥٠ .

(٢) انظر تفسير القرطبىّ ص ٥٢٨ ومعانى القرآن للأخفش ١ / ١٥٠ ومعانى القرآن للفرّاء ١ / ٨٢ .

مؤكدّ منتصب عن قوله : آمنّا بالله[١] وقيل غير ذلك[٢] وبالنّصب قراءة الجمهور[٣] قال ابن عبّاس : هو أنّ النّصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيّام غمسوه فى ماء لهم [أصفر][٤] يقال له ماء المعموديّة فصبغوه بذلك ليطهّروه به مكان الختان ، لأنّ الختان تطهير . فإذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانيًّا حقًّا . فردّ الله تعالى ذلك عليهم بأن قال : صبغةَ الله ، أى صبغة الله أحسن صبغة وهى الإسلام . فسمّى الدّين صبغة استعارةً ومجازا ، من حيث تظهر أعماله وسمَتُه على المتديّن كما يظهر أثر الصّبغ فى الثّوب[٥] . عن قتادة : قوله : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، إنّ اليهود تصبغ أبناءها يهود والنّصارى تصبغ أبناءها نصارى . وإنّ صبغة الله الإسلام . فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر وهو دين الله الّذى بعث به نوحًا والأنبياء بعده[٦] .

ومن أحسن من الله صبغة : هذا استفهام ومعناه النّفى ، أى ولا أحد أحسن من الله صبغة[٧] وانتصاب صبغة هنا على التّمييز[٨] .

طلب اليهود من المسلمين إن أرادوا أن يهتدوا أن يكونوا يهودًا ، وطلب النّصارى منهم أن يكونوا نصارى وردّ عليهم القرآن الكريم على الفور : « بل ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين » والمعنى بل نتّبع ملّة إبراهيم عليه السّلام ودين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . وفى هذه الآية الكريمة يأتى القول : « صبغة الله » بدلاً من ملّة . والمعنى : بل نتّبع ملّة إبراهيم ، صبغة الله تعالى الّتى صبغ بها المسلمين . إنّ النّصارى مثلاً إذا كانوا يصبغون صغارهم بماء المعموديّة ويغمسون الواحد منهم حينما يأتى عليه سبعة أيّام بقصد تنصيره وبقصد تطهيره حسب اعتقادهم ، وإذا كانوا أرادوا من المسلمين أن يتحوّلوا نصارى كى يهتدوا حسب زعمهم وكان السّياق قد ردّ عليهم من قبل مبيّنًا أنّ المسلمين

---

(١) الكشّاف ١ / ٢٤١ والبحر المحيط ١ / ٤١١ .

(٢) انظر البحر المحيط ١ / ٤١٢ وتفسير القرطبىّ ص ٥٢٨ ومعانى القرآن للأخفش ١ / ١٥٠ وتفسير ابن كثير ١ / ١٨٨ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٤١١

(٤) الزّيادة من الكشّاف ١ / ٢٤١ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٨

(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٤ .

(٧) البحر المحيط ١ / ٤١٢

(٨) البحر المحيط ١ / ٤١٢ .

لا يتّبعون النّصرانيّة ولا اليهوديّة بل يتّبعون ملّة إبراهيم حنيفًا ، فإنّ الآية الكريمة تبيّن فى المقابل أنّ ملّة إبراهيم عليه السّلام ودين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده وأكمله لهم وأتمّ به النّعمة عليهم هو الصّبغة الّتى صبغ الله تعالى بها المسلمين لله تعالى . وبما أنّ الصّبغة تلزم المصبوغ ولا تفارقه ، فكذلك دين الإسلام الّذى صبغ الله تعالى به عباده المسلمين المؤمنين المتّقين . وإذا كان اليهود مثلاً يصبغون أبناءهم يهودا ، وكان النّصارى يصبغون أبناءهم نصارى ، وقد أضرب السّياق من قبل عن اليهوديّة والنّصرانيّة وذلك فى القول : « بل ملّة إبراهيم حنيفًا » فما قيمة كلٍّ من الصّبغتين بالقياس إلى صبغة الله تعالى الّتى تتمثّل فى دين الإسلام ؟ إنّ مجرّد القول « صبغة الله » تقرّر هذه الحقيقة وتعّمقها ، وإنّ الاستفهام الّذى يفهم منه النّفى فى القول : « ومن أحسن من الله صبغة » مؤكّد لتلك الحقيقة ومقوٍّ لها . والمعنى لا أحد أحسن من الله تعالى صبغة . وبالتّالى لا صبغة أحسن من الصبغة بدين الإسلام الذى بعث الله تعالى به أخيرًا خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ .

وإنّ التّذييل « ونحن له عابدون » مرتبطٌ من ناحية بالذّات العليّة ، بلفظ الجلالة وذلك فى القول : « ومن أحسن من الله صبغة » ومُعَمِّقٌ من ناحيةٍ أخرى للتّعريض بكلٍّ من اليهود الّذين يقولون إنّ عزيرًا ابن الله ، والنّصارى الّذين يقولون إنّ المسيح ابن الله ، وذلك فى القول : « قل بل ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين » ومعنى التّذييل « ونحن له عابدون » ونحن المسلمين لا نعبد إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له . وهذا معناه أنّ الهداية الحقيقيّة إنّما هى فى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأنتم أيّها اليهود الّذين تقولون إنّ عزيرًا ابن الله ، وأيّها النّصارى الّذين تقولون إنّ المسيح ابن الله ، مشركون مع الله تعالى سواه ، فكيف تزعمون أنّكم أنتم المهتدون ؟ وكيف تطلبون منّا نحن المسلمين الموحّدين لله تعالى الّذين لا نعبده إلاّ هو وحده لا شريك له كيف تطلبون منّا أن نتحوّل مشركين ؟ إنّ هذا الكلام لا يقوله إلاّ جاهل أو معاند ، ويبدو أنّ حظ القوم من العناد والخصام والتّعنّت كبير ، وذلك ما أفصحت به الآية الكريمة التّالية .

الآيــة رقــم (١٣٩)

قال تعالى : ﴿ قل أتحاجّوننا فى الله وهو ربّنا وربّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ .

أتحاجّوننا : عن ابن عبّاس : أتحاجّوننا : أتجادلوننا[١] وتخاصمونني[٢] وتجاذبوننا الحجّة[٣] .

فى الله : فى دين الله الّذى أمرنا أن ندينه به[٤] .

ونحن له مخلصون : الإخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين[٥] .

قال سعيد بن جبير : الإخلاص ألاّ يشرك فى دينه ولا يرائى فى عمله أحدًا[٦] .

طلب اليهود والنّصارى من المسلمين أن يكونوا هودًا أو نصارى كى يهتدوا ، وكان الرّدّ الفورىّ عليهم بأنّ على المسلمين أن يتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفًا ، وقد بُعِثَ محمّد بن عبد الله ﷺ بالحنيفيّة السّمحة دين الإسلام .

وكان التّعريض باليهود والنّصارى عقب الحديث عن إبراهيم عليه السّلام ونفى الشّرك عنه ، كان التّعريض بإشراك القوم مع الله تعالى سواه وذلك فى القول عن إبراهيم عليه السّلام : « وما كان من المشركين » وكان التّعريض باليهود والنّصارى عقب الحديث عن الإيمان بالله تعالى وبكلّ رسله وفيهم محمّد بن عبد الله ﷺ خاتمهم وأشرفهم . كان التّعريض بكون القوم ليسوا مسلمين لله ربّ العالمين ، وذلك فى القول : « ونحن له مسلمون » ثمّ كانت الآية الكريمة الّتى تبيّن الموقفين اللّذين يصحّ أن يتبنّى أهل الكتاب أحدهما . أمّا أوّلهما فهو الإيمان بالله تعالى وبكلّ أنبيائه ورسله كما يفعل المسلمون . وأمّا آخرهما فهو تولّى اليهود والنّصارى وكونهم فى شقاق . وقد جاءت الآية الكريمة

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٥

(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٥ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٩

(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٦

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٩

(٦) البحر المحيط ١ / ٤١٣ .

الأولى بعد ذلك متمشّيةً مع الموقف الأوّل وذلك فى قوله تعالى : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ وجاءت الآية الكريمة الثّانية بعد ذلك متمشّيةً مع الموقف الثّانى ، وهى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . قال تعالى : ﴿ قل أتحاجّوننا فى الله وهو ربّنا وربّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ وسبق أن تبيّنّا أنّ فى كلٍّ من التذييلات التّالية « وما كان من المشركين » « ونحن له مسلمون » « ونحن له عابدون » تعريضًا باليهود والنّصارى وذلك بالإشراك مع الله تعالى غيره . فمن اليهود من كان يعبد العجل ومن النّصارى من يعبد عيسى ابن مريم عليه السّلام حتّى يوم النّاس هذا ، ثمّ إنّ القوم ليسوا مسلمين لله ربّ العالمين ، وليسوا عابدين لله تعالى وحده لا شريك له حقّ العبادة . وعكس كلّ تلك الصّفات السّيّئة يتحقّق فى المسلمين لله ربّ العالمين . وإنّ فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تذييلاً وتعريضًا على غرار ما سبق فمع الدّراسة المتأمّلة للآية الكريمة .

تبيّنّا أنّ الآية الكريمة السّابقة الّتى تتمشّى مع الموقف الأوّل الصّحيح الّذى يصحّ أن يقفه اليهود والنّصارى قد بيّنت صبغة الله تعالى وهى دين الإسلام الّذى ينبغى أن يصطبغ به كلّ عباد الله تعالى والّذى ينبغى أن يعبد الله تعالى وفق تعاليمه وكان التّذييل المعرّض باليهود والنّصارى معمّقًا لمعنى الاصطباغ بدين الإسلام « ونحن له عابدون » أمّا هذه الآية الكريمة التّالية فإنّها تتمشّى مع الموقف الثّانى غير الصّحيح الّذى يصحّ أن يقفه اليهود والنّصارى ، بل الّذى صحّ أن وقفه اليهود والنّصارى ـــ وللأسف ـــ فى مجموعهم من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، وهذا الموقف هو الّذى عبّر عنه من قبل قوله تعالى : ﴿ وإن تولّوا فإنّما هم فى شقاق ﴾ وعليه فالآية الكريمة مبيّنةٌ لشقاق القوم وخلافهم وخصامهم ومجادلتهم ومحاجّتهم ومناظرتهم بالباطل .

والآية الكريمة تستفهم فى أسلوب الإنكار ، آمرةً المصطفى ﷺ ، وإنّ كلاًّ من أفراد أمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له فى ذلك ، بأن يقول لليهود والنّصارى متسائلاً : « أتحاجّوننا فى الله ..... » .

ومعنى القول : « قل أتحاجّوننا فى الله » قل يا محمّد يأيّها الرّسول الكريم والنّبىّ

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
عام ١٤٢١ هـ

العظيم ، وإنّ أفراد أمّتك تبعٌ لك فى هذا الأمر ، قل لليهود والنّصارى فى أسلوب الاستفهام الإنكارىّ التّوبيخىّ التّقريعىّ ، بسبب سفههم وعنادهم ، أتحاجّوننا فى الله وتجادلوننا فى دينه وتخاصموننا فى دين الإسلام الّذى بعث به كلّ رسله إلى أن بعث به محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، زاعمين أنّكم على الهدى وأنّا نحن المسلمين على ضلال ، وقد بيّن القرآن الكريم أنّنا على الهدى ، منكرين أن تتحوّل الرّسالة الخاتمة عنكم لأنّ كلّ الرّسل من سلالة إبراهيم عليه السّلام فيكم ، فينبغى أن يكون الرّسول الخاتم منكم والرّسالة الخاتمة فيكم ، لأنّكم — حسب زعمكم — أبناء الله تعالى وأحبّاؤه ، ولأنّ كتبكم وقبلتكم متقدّمة ، مستكثرين فضل الله تعالى على الأمّيّين من العرب الّذين بعث الله تعالى فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين . لماذا تستكثرون هذه النّعمة وذلك الفضل على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى العرب الأمّيّين المبعوث فيهم . ألستم تعلمون أنّ الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؟ ومن مظاهر فضل الله تعالى على بنى إسرائيل مثلاً أن آتاهم الكتاب والحكم والنّبوّة ورزقهم من الطّيّبات وفضّلهم على عالمى زمانهم وآتاهم بيّناتٍ من الأمر . وإنّ من مظاهر فضل الله تعالى على الأمّيّين أن بعث فيهم رسولاً منهم هو خاتم النّبيّين محمّد بن عبد الله ﷺ . إنّ الله سبحانه وتعالى هو ربّنا نحن المسلمين وقد خصّنا بالفضل أخيرًا ﴿ لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون ﴾[1] وإنّ الله سبحانه وتعالى هو ربّكم الّذى اصطفاكم بنعمه قديمًا . وإنّ الله سبحانه وتعالى هو مربّينا بنعمه جلّ وعلا وآلائه وهو عزّ وجلّ مربّيكم بنعمه وآلائه . وبسبب كفركم نعمه جلّ وعلا وآلاءه تحوّلت النّعمة إلينا نحن المسلمين فبعث الله تعالى فينا خاتم أنبيائه ورسله واصطفانا جلّ وعلا من عباده فأورثنا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد . وإنّ لنا نحن المسلمين أعمالنا إن خيرًا فسيثيبنا الله تعالى عليها خيرًا ، وإن شرًّا فسيجازينا الله تعالى عليها شرًّا . وإنّ لكم أيضًا أعمالكم ، إنْ خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ . ولا تنسوا قوله تعالى[2] : ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣ .

(٢) سورة البقرة ١٣٥ .

تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ وقوله تعالى[١] : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صِبْغةً ونحن له عابدون ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم قل إنّ هدى الله هو الهدى . ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ إنّ الّذى عندنا بنصّ القرآن الكريم هو العلم الّذى بعث به محمّد بن عبد الله ﷺ ألا وهو دين الإسلام ، وإنّ الّذى عندكم أيّها اليهود والنّصارى هو الهوى . ولا مكان للهوى مع العلم .

وتختم الآية على غرار العديد من آيات القسم بالتّذييل ذى التّعريض باليهود والنّصارى : « ونحن له مخلصون » ويعتبر هذا التّعريض أقوى أنواع التّعريض الأربعة ، ويبدو ذلك حينما نذكرها مرتّبة « وما كان من المشركين » « ونحن له مسلمون » « ونحن له عابدون » « ونحن له مخلصون » والمعنى أنّنا نحن المسلمين مخلصون العبادة لله تعالى وحده لا شريك له . إنّ اليهود والنّصارى يستطيعون أن يدّعوا أنّهم عابدون لله تعالى ومن ثمّ هم يشتركون فى القول : « ونحن له عابدون » ولكنّ اليهود بشأن هذا التّذييل « ونحن له مخلصون » لا يستطيعون إلاّ أن يعترفوا بعبادة بعض آبائهم من بنى إسرائيل العجل مثلاً ، فأولئك مشركون . ولا يستطيع النّصارى حتّى يوم النّاس هذا ، وهم الّذين يزعمون أنّ عيسى عليه السّلام ابن الله — كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا — إلاّ أن يعترفوا بعبادتهم عيسى عليه السّلام عبد الله تعالى ورسوله وكلمته الّتى ألقاها إلى مريم . إنّ المسلمين وحدهم هم المخلصون العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وهم الموحّدون . وحينما يكون المسلمون هم المخلصين العبادة الله تعالى يصحّ فى حقّ غيرهم كلّ تعريض فى كلٍّ من التّذييلات فى الآيات الكريمات .

وأعجب ما فى الأمر وقاحة القوم فى جدلهم ومجاذبة المسلمين الحجّة . وقد قال تعالى[٣] : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نَعْبُدَ إلاّ الله ولا نشركَ به شيئًا ولا يتّخِذَ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ١٣٨ (٢) سورة البقرة ١٢٠ .

(٣) سورة آل عمران ٦٤ .

الآيــة رقــم (١٤٠)

قال تعالى : ﴿ أم تقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى . قل أأنتم أعلم أم الله . ومن أظلم ممّن كتم شهادةً عنده من الله . وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾ .

« الغفلة : سهوٌ يعترى الإنسان من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ ، يقال : غَفَلَ فهو غافل .... وأرضٌ غُفْلٌ لا منار بها . ورجلٌ غُفْلٌ لم تَسُمْهُ التّجارب »[١] والغافل الّذى لا يفطن للأمور إهمالاً ، مأخوذ من الأرض الغُفْل وهى الّتى لا عَلَمَ بها ولا أثر عمارة ، وناقةٌ غفلٌ لا سمة بها ، ورجلٌ غُفْلٌ لم يجرّب الأمور[٢] .

جدل اليهود والنّصارى بالباطل المسلمين قائمٌ على دعامتين اثنتين . أولاهما الزّعم بأنّهم على الهدى وأنّ المسلمين فى ضلال . وقد دحضت الآية الكريمة السّابقة هذا النّوع من الجدل فلا مكان لمجادلة اليهود والنّصارى المسلمين فى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى للمسلمين والّذى بعث به محمّدًا ﷺ . وأخراهما الزّعم بأنّ إبراهيم عليه السّلام الّذى بُعِث محمّد بن عبد الله ﷺ بحنيفيّته السّمحة كان يهوديًّا فى عرف اليهود نصرانيًّا فى عرف النّصارى . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تدحض هذا النّوع من الجدل العقيم .

والآية الكريمة تبدأ بأم ، الّتى نميل إلى كونها متّصلة . والمعنى : أتحاجّوننا نحن المسلمين أيّها اليهود والنّصارى فى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به خاتم الأنبياء والمرسلين ، أم تقولون إنّ إبراهيم وذرّيّته المذكورين فى الآية الكريمة كانوا هودًا أو نصارى . إنّ محاجّتكم لا مكان لها ، وإنّ قولكم بيهوديّة إبراهيم أو نصرانيّته لا أساس له من الصّحّة . « أم تقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى » والاستفهام هنا كسابقة تقريرىّ إنكارىّ تقريعىّ ، لأنّ القوم قالوا بغير علم . وقد جاء فى سورة

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٦٢ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٣٠ .

آل عمران[١] قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون فى إبراهيم وما أُنزِلت التّوراة والإنجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ فَلِم تحاجّون فيما ليس لكم به علم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين ﴾ .

إنّ الاستفهام الإنكارىّ الأوّل فى الآية الكريمة ، والّذى يفهم منه قول اليهود والنّصارى عن إبراهيم عليه السّلام بغير علم قد تلاه استفهامٌ إنكارىّ آخر فيه التّصريح بالعلم المنفىّ عن القوم كما يفهم من الاستفهام الإنكارى ، ويجىء التّصريح بالعلم فى السّؤال الثّانى بعد التّلميح به فى السّؤال الأوّل : « أم تقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله » ؟ ومهما بلغت الجراءة والوقاحة باليهود من مبلغ فإنّها لن تصل إلى الادّعاء بأنّهم أعلم من الله تعالى . فإذا كان ربّ العزّة قد بيّن فى كتابه العزيز أنّ إبراهيم عليه السّلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا فلا يملك اليهود والنّصارى بعد ذلك إلاّ أن يسحبوا ادّعاءهم بيهوديّة إبراهيم عليه السّلام أو بنصرانيّته .

ويردف الاستفهامان السّابقان باستفهامٍ ثالثٍ مبنىّ عليهما ، إذ يفهم منه أنّ اليهود والنّصارى فى زعمهم أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يهوديًّا فى عرف اليهود ونصرانيًّا فى عرف النّصارى ، إنّما كان زعمًا قصدوا منه كتمان الشّهادة الّتى عندهم فى كلٍّ من التّوراة والإنجيل بأنّ إبراهيم عليه السّلام كان حنيفًا مسلمًا و لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا : « ومن أظلم ممّن كتم شهادةً عنده من الله » والمعنى : لا أحد أظلم ممّن كتم شهادةً عنده من الله تعالى ، وعليه فلا أحد أظلم من اليهود والنّصارى الّذين كتموا الشّهادة من الله تعالى الّتى جاءتهم ووصلت عندهم فى التّوراة والإنجيل بأنّ إبراهيم عليه السّلام كان حنيفًا مسلمًا . يقول الطّبرىّ[٢] : « قيل الشّهادة الّتى عندهم من الله فى أمرهم ما أنزل الله إليهم فى التّوراة والإنجيل وأمرهم فيهما بالاستنان بسنّتهم واتّباع ملّتهم وأنّهم كانوا حنفاء مسلمين

---

(١) سورة آل عمران ٦٥ ــ ٦٧ (٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٤٧ وانظر ص ٤٤٦ .

وهى الشّهادة الّتى عندهم من الله الّتى كتموها حين دعاهم نبىّ الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا له : لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى . وقالوا له ولأصحابه : كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ، فأنزل الله فيهم هذه الآيات فى تكذيبهم وكتمانهم الحقّ وافترائهم على أنبياء الله الباطل والزّور » قال الحسن البصرىّ : كانوا يقرءون فى كتاب الله الّذى أتاهم : إنّ الدّين الإسلام . وإنّ محمّدًا رسول الله . وإنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهوديّة والنّصرانيّة فشهدوا لله بذلك وأقرّوا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك(١) .

والعجيب فى أمر القوم أنّهم رغم كلّ ذلك التّهديد والوعيد يصرّون على أقوالهم ، بل يتجاوزون الأقوال إلى العمل من أجل تضليل المسلمين وصرفهم عن دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . ولا زال كلٌّ من اليهود والنّصارى حريصين على إخراج المسلمين من دائرة الإسلام ابتداءً وإدخالهم فى اليهوديّة أو النّصرانيّة انتهاءً ، إن لم يكن عن طريق اعتناق إحدى الدّيانتين فعن طريق اعتناق فلسفة كلٍّ من الفريقين ومبادئهما . وقد استحقّ القوم أن يوجّه إليهم فى تذييل الآية الكريمة أشدّ أنواع التّهديد والوعيد . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تسير فى تذييلها وفق طرائق العديد من آيات هذا القِسْم من السّورة الكريمة . وهذا هو التّهديد : « وما الله بغافلٍ عمّا تعملون » ولا زال الخطاب متّجهًا إلى القوم . والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى ليس غافلاً عمّا تعملون أيّها اليهود والنّصارى من تضليلٍ لعباد الله تعالى وصرفهم عن الصّراط المستقيم ، عن دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده وبعث به خاتم أنبيائه ورسله محمّد بن عبد الله ﷺ .

الآيــة رقــم (١٤١)

قال تعالى : ﴿ تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ﴾ .

هذه الآية الكريمة هى ذات الآية الكريمة الرّابعة والثّلاثين بعد المائة . وسبق أن تبيّنّا أنّ

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٨٨ .

الآية الكريمة جاءت إثر حديث الآيات الكريمات عن إبراهيم عليه السّلام وذرّيّته من النّبيّين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وسبق أن تبيّنّا أنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ تلك الأمّة الّتى قد خلت والجماعة الّتى مضت حاملةً مشاعل الهدى فى موكب النّبيّين الكرام لها ما كسبت من حسنات وعليها ما اكتسبت من سيّئات . وأنتم أيّها المخاطبون ، اليهود والنّصارى ، باعتبار السّياق يتحدّث عنهم ، المسلمون من أمّة محمّد ﷺ باعتبارهم المنتفعين الحقيقيين من نور القرآن الكريم ، لكم ما كسبتم من حسنات وعليكم ما كسبتم من سيّئات ، ولا تسألون عمّا كانوا يعملون . ويلاحظ أنّ هذه الآية الكريمة تأتى فى المرّة الأولى إثر الحديث عن فريق من أنبياء الله تعالى الكرام . أمّا فى هذه المرّة الثّانية ، فالملاحظ أنّ الآية الكريمة تجىء إثر الحديث عن اليهود والنّصارى بخاصّة . ومع أنّ الحديث يصحّ أن يتّجه هنا ، كما اتّجه من قبل ، إلى اليهود والنّصارى ، وللسّبب نفسه وهو كون اليهود والنّصارى محور الحديث فى الآيات الكريمات السّابقات ، فإنّ الحديث فى الآية الكريمة يصحّ أن يتّجه إلى المسلمين لله ربّ العالمين ، ربّما بطريق الأولى والأحرى . فقد عرفنا أنّهم هم المنتفعون من تعاليم القرآن الكريم . إنّ النّبيّين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذا كانوا سيُسْألون يوم القيامة كما فهم من الآية الكريمة فى المرّة الأولى ، فمن باب الأولى أن يكون اليهود والنّصارى موطن تساؤل وحساب كما يفهم من الآية الكريمة فى المرّة الثّانية . وإنّ المسلمين لله ربّ العالمين يتّجه إليهم الحديث هنا للمرّة الثّانية كى يستقرّ فى أعماقهم أنّ العبرة يوم القيامة ليست بالمال ولا بالجاه ولا بالنّسب ، ولكن بالقلب السّليم والعمل الصّالح الّذى يراد به وجه الله تعالى . وكلّ شخصٍ مسئولٌ وحده عمّا اقترفت يداه ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾[1] .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة يوم الأربعاء ٢٥ / ٨ / ١٤٠٥ هـ

---

(١) سورة فاطر ١٨ .

[٨]

القِبلة ومتعلّقاتها

الآيات ١٤٢ ــ ١٦٤

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟
عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ

ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ
فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ
أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

لليهود — وكذلك للنّصارى — ادّعاءاتهم بشأن إبراهيم عليه السّلام للدّرجة الّتى زعموا معها أنّ إبراهيم عليه السّلام يهودىّ وطلبوا من المسلمين أن يكونوا يهودا كما طلب النّصارى أن يكونوا نصارى وقد ردّ عليهم القرآن الكريم . ولمّا كان المصطفى ﷺ حتّى مضىّ زهاء ستّة عشر شهرًا بعد الهجرة يتّجه فى صلاته إلى بيت المقدس وكان عليه الصّلاة والسّلام يتمنّى أن يجيئه من الله تعالى الأمر بأن يتّجه فى صلاته حيث المسجد الحرام لأنّه قبلة إبراهيم عليه السّلام ولأنّ ذلك أدعى لإسلام العرب ، لذلك كان ثمّة حديثٌ فى هذا القسم من السّورة عن القبلة ومتعلّقاتها فكان ثمّة إنباءٌ بالغيب بحقّ السّفهاء من اليهود الّذين سيستنكرون التّولّى فى الصّلاة عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وكان الرّدّ الفورىّ عليهم بأنّ لله المشرق والمغرب وأنّ الله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ، وكان تقريرٌ بكون الأمّة الإسلاميّة وسطًا فى كلّ أمورها وشهودًا على الأمم السّابقة وكون الرّسول شهيدًا على هذه الأمّة المسلمة ، وتقريرٌ للحكمة من الأمر بالتّحوّل من قبلةٍ إلى أخرى وإن كانت التّحويلة شاقّة وتبيينٌ أنّ الله تعالى لن يضيع ثواب من صلّى إلى المسجد الأقصى إلى أن توفّاه الله تعالى . والسّياق يقرر عنت أهل الكتاب بشأن القبلة وبشأن غيرها من أمور الإسلام كنعت المصطفى ﷺ والقرآن الكريم . وإنّ التّوجّه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام فى الحضر وفى السّفر ولا عبرة باستنكار الظّالمين الّذين لا ينبغى أن نأبه لهم . وكما بيّن الله تعالى لنا وجه الحقّ فى أمر القبلة أرسل إلينا خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرفهم فعلينا أن نذكره جلّ وعلا وأن نشكر له ولا نكفره ، وأن نستعين بالصّبر والصّلاة وألاّ نقول لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياءٌ ولكن لا نشعر وعلينا بالصّبر بشأن ما يبتلينا الله تعالى به وأن نقول عند المصيبة : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » فإنّ ثواب ذلك عظيم . ولمّا كان الحجّ يحتاج للصّبر بأكثر من غيره لذا كان الحجّ مرّةً واحدةً فى العمر . فقد كان ثمّة حديثٌ عن السّعى بين الصّفا والمروة فى الحجّ والعمرة وكان حثٌّ على عدم كتمان ما أنزل الله تعالى من البيّنات والهدى ووعدٌ بالعذاب الأليم للكاتمين الكافرين حتّى

توفّاهم الله تعالى مع فتحٍ لباب التّوبة على مصراعيه لمن تاب وأصلح وبيّن . ويقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى هو الإله الواحد الرّحمن الرّحيم . وتتحدّث آخر آيات القسم عن بعض نعوت هذا الإله الواحد فى طريقة القرآن الكريم المعجزة .

الآيــة رقــم (١٤٢)

قال تعالى : ﴿ سيقول السّفهاء من النّاس ما ولاّهم عن قبلتهم الّتى كانوا عليها . قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

السّفهاء جمع ، واحده سفيه ، وهو الخفيف العقل ، مِنْ قولهم : ثوبٌ سفيه إذا كان خفيف النّسج[١] والسّفهاء : اليهود قاله البَرَاء بن عازب ومجاهد وابن جبير . وأهل مكّة قالوا : اشتاق محمّدٌ إلى مولده وعن قريبٍ يرجع إلى دينكم ، رواه أبو صالح عن ابن عبّاس ، واختاره الزّجّاج . أو المنافقون ، قالوا ذلك استهزاءً بالمسلمين ، ذكره السّدّى عن ابن مسعود . وقد جرى تسمية المنافقين بالسّفهاء فى قوله : ألا إنّهم هم السّفهاء . أو الطّوائف الثّلاث الّذين تقدّم ذكرهم من النّاس[٢] وقد فصّل القرطبىّ ما قالت تلك الطّوائف . يقول[٣] : « الزّجّاج : كفّار قريشٍ لمّا أنكروا تحويل القبلة قالوا : قد اشتاق محمّدٌ إلى مولده وعن قريبٍ يرجع إلى دينكم . وقالت اليهود : قد التبس عليه أمره وتحيّر . وقال المنافقون : ما ولاّهم عن قبلتهم أو استهزءوا بالمسلمين » . ويقول الطّبرىّ[٤] : « سيقول السّفهاء : سيقول الجهّال من النّاس وهم اليهود وأهل النّفاق . وإنّما سمّاهم الله عزّ وجلّ سفهاء لأنّهم سفهوا الحقّ فتجاهلت أحبار اليهود وتعاظمت جهّالهم وأهل الغباء منهم عن اتّباع محمّد ﷺ إذ كان من العرب ولم يكن من بنى إسرائيل . وتحيّر المنافقون فتبلّدوا » .

ما ولاّهم : أىّ شىءٍ صرفهم عن قبلتهم . وهو من قول القائل : ولاّنى فلانٌ دبره إذا

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٣١ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٢٠ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٣١ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٢ .

حوّل وجهه عنه واستدبره ، فكذلك قوله : ما ولاّهم ، أىّ شيءٍ حوّل وجوههم[١] والضّمير عائدٌ على النّبىّ ﷺ والمؤمنين[٢] .

عن قبلتهم : قبلة كلّ شيءٍ ما قابل وجهه . وإنّما هى فِعْلة بمنزلة الجِلسة والقِعدة من قول القائل : قابلت فلانًا إذا صرت قبالته أقابله فهو لى قبلة وأنا له قبلة ، إذا قابل كلّ واحدٍ منهما بوجهه وجه صاحبه[٣] فالقبلة الجهة الّتى يستقبلها الإنسان من المقابلة ، وجاءت القبلة وإن أريد بها الجهة على وزن الهيئات[٤] وأضاف القبلة إليهم لأنّهم كانوا استقبلوها زمنًا طويلاً فصحّت الإضافة[٥] .

الّتى كانوا عليها : الاستعلاء هنا مجاز . وحكمته أنّهم لمواظبتهم على امتثال أمر الله فى المحافظة على الصّلوات صارت القبلة لهم كالشّىء المستعلى عليه الملازم دائمًا . وفى وصف القبلة بقوله : الّتى كانوا عليها ما يدّل على تمكّن استقبالها وديمومتهم على ذلك[٦] .

قل : يا محمّد[٧] .

إلى صراطٍ مستقيم : الصّراط : الطّريق . والمستقيم : الّذى لا اعوجاج فيه[٨] .

سبب النّزول .

روى البخارىّ عن البَرَاء رضى الله عنه أنّ النّبىّ ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستّة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنّه صلّى أوّل صلاةٍ صلاّها صلاة العصر وصلّى معه قومٌ فخرج رجلٌ ممّن كان صلّى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صلّيت مع النّبىّ ﷺ قِبَلَ مكّة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت . وكان الّذى قدمات على القبلة قَبْلَ أن تحوّل قِبَلَ البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله : وما كان الله ليضيع إيمانكم إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم . انفرد

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٢ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٣١ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٢٠
(٣) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٢ .
(٤) انظر البحر المحيط ١ / ٤١٨
(٥) البحر المحيط ١ / ٤٢٠ .
(٦) البحر المحيط ١ / ٤٢٠
(٧) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٥ .
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٣٦ .

به البخارىّ من هذا الوجه ورواه مسلم من وجهٍ آخر[١] وروى محمّد بن إسحاق عن البَرَاء أنّه قال : كان رسول الله ﷺ يصلّى نحو بيت المقدس ويكثر النّظر إلى السّماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله : قد نرى تقلّب وجهك فى السّماء فلنولّينّك قبلةً ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام . فقال رجالٌ من المسلمين وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله : وما كان الله ليضيع إيمانكم . وقال السّفهاء من النّاس وهم أهل الكتاب : ما ولاّهم عن قبلتهم الّتى كانوا عليها فأنزل الله : سيقول السّفهاء من النّاس . إلى آخر الآية[٢] وأمّا أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثّانى كما جاء فى الصّحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : بينما النّاس بقباء فى صلاة الصّبح إذ جاءهم آتٍ فقال : إنّ رسول الله ﷺ قد أنزل عليه اللّيلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشّام فاستداروا إلى الكعبة[٣] .

مناسبة الآية لما قبلها .

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ اليهود والنّصارى قالوا : إنّ إبراهيم ومن ذكر معه كانوا يهودًا ونصارى . ذكروا ذلك طعنًا فى الإسلام لأنّ النّسخ عند اليهود باطلٌ فقالوا : الانتقال عن قبلتنا باطلٌ وسفه . فردّ الله تعالى ذلك عليهم بقوله : قل لله المشرق والمغرب الآية . فبيّن ما كان هدايةً وما كان سفهًا[٤] .

حينما كان المصطفى ﷺ فى مكّة المكرّمة أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يتّجه فى صلاته إلى صخرة بيت المقدس . وتعبيرًا منه ﷺ عن حبّه للبيت العتيق قبلة إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء كان عليه الصّلاة والسّلام فى اتّجاهه إلى الصّخرة من بيت المقدس فى الصّلاة يصلّى بين الرّكنين الأسود واليمانى ، وبذلك يكون البيت العتيق أمامه عليه الصّلاة

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٨٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٣١ والبحر المحيط ١ / ٤١٩ وتفسير الطّبرى ٢ / ٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٨٩ وانظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٢ / ١٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٠ وقد روى القرطبىّ فى تفسيره ص ٥٣١ هذا الحديث الّذى رواه الأئمّة واللّفظ عنده لمالك .

(٤) البحر المحيط ١ / ٤١٩ .

والسّلام . فلّما هاجر عليه الصّلاة والسّلام إلى المدينة المنّورة الّتى كانت هى وبيت المقدس إلى الشّمال من مكّة المكرّمة تعذّر عليه ﷺ الجمع بينهما فكان يقلّب وجهه فى السّماء عقب كلّ صلاة فى انتظار أمر الله تعالى له بأن يتّجه فى الصّلاة إلى البيت العتيق قبلة إبراهيم عليه السّلام ولأنّ ذلك أدعى لإسلام العرب دعامة الإسلام الأولى . ومكث عليه الصّلاة والسّلام على هذه الحال ستّة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا ثمّ أوحى الله تعالى إليه بالتّوجه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام والبيت العتيق(١) .

والآية الكريمة تقرّر أنّ سفهاء اليهود فى المقام الأوّل وحمقى بنى إسرائيل أصحاب العقول السّخيفة والحلوم الخفيفة منهم ، ويلحق بهم المنافقون والكافرون ، سيقولون فى تعجّب واستنكار : ما الّذى صرف المسلمين عن قبلتهم إلى الصّخرة من بيت المقدس الّتى كانوا عليها ، وما الّذى حدابهم إلى أن يتّحوّلوا بأوجههم فى الصّلاة عن تلك القبلة وحملهم على أن يتجهوا بأوجههم إلى المسجد الحرام والبيت العتيق ؟ ويجىء فى الآية الكريمة حرف السّين الّذى يفيد الاستقبال فى القول : سيقول . ويعتبر ذلك مظهرًا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى الإنباء بالغيب ، ونتبيّن فى هذا الإنباء تهيئةً للمسلمين لسماع ما سيقول أولئك السّفهاء من النّاس الّذين لا يريدون أن يفهموا أنّ اتّجاه المصطفى ﷺ فى الصّلاة لكلٍّ من القبلتين بوحيٍ من الله تعالى .

وتلقّن الآية الكريمة المصطفى ﷺ الجواب على أولئك السّفهاء وذلك فى الخطاب الّذى يتّجه إليه ﷺ ابتداءً ويتّجه إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بعد ذلك : قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم . والمعنى : قل يا محمّد ، لله سبحانه وتعالى الجهات كلّها الّتى عبّر عنها بأهمّها المشرق والمغرب . فمن حقّه جلّ وعلا أن يوجّه عباده فى الصّلاة إلى أىّ جهةٍ شاء ، إلى صخرة بيت المقدس أو إلى المسجد الحرام . لا يُسْأَل عمّا يفعل جلّ وعلا ، والعباد يُسْأَلون ، والمطلوب منهم الامتثال المطلق لوحى الله تعالى . وتبيّن الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم .

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ١ / ١٨٩ وتفسير القرطبىّ ص ٥٣٢ والبحر المحيط ١ / ٤٢٠ وتفسير الطّبرىّ ٢ / ٣ ، ٤ ، ٥ .

وقد تجلّت الهداية أوّلاً بمشيئة الله تعالى فى التوجّه إلى الصّخرة من بيت المقدس فى الصّلاة . وقد تجلّت الهداية آخرًا بمشيئة الله تعالى فى التّوجّه إلى المسجد الحرام فى الصّلاة . والمسجد الحرام هو قبلة إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء ، وقد بعث الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين بالحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم الخليل عليه السّلام ، فهو عليه الصّلاة والسّلام والمؤمنون به عليه الصّلاة والسّلام أولى النّاس بإبراهيم عليه السّلام وبقبلته . وحينما تقرن الآية الكريمة بين الهداية إلى الصّراط المستقيم وبين تقرير كون المشرق والمغرب لله تعالى وهما رمز الجهات كلّها فللّه تعالى أن يوجّه العباد إلى القبلة الّتى يرضاها نفهم أنّ الصّراط المستقيم الّذى هدانا الله تعالى إليه هو قبلة إبراهيم عليه السّلام الّتى وجّهنا الله تعالى إليها والّتى رضيها المصطفى ﷺ وكان يتمنّاها .

« وفى هذه الآية دليلٌ واضحٌ على أنّ فى أحكام الله تعالى وكتابه ناسخًا ومنسوخا ، وأجمعت عليه الأمّة إلاّ من شذّ ... وأجمع العلماء على أنّ القبلة أوّل ما نسخ من القرآن »[١] وقد روى ذلك عن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما[٢] ودلّت الآية الكريمة أيضاً على جواز نسخ السّنّة بالقرآن ، وذلك أنّ النّبىّ ﷺ صلى نحو بيت المقدس وليس فى ذلك قرآن . فلم يكن الحكم إلاّ من جهة السّنّة ثمّ نسخ ذلك بالقرآن[٣] .

الآيــة رقــم (١٤٣)

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيدًا ، وما جعلنا القبلة الّتى كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرّسول ممّن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرةً إلاّ على الّذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم ﴾ .

وكذلك : الكاف للتّشبيه وذلك اسم إشارة[٤] كما هدينا كم أيّها المؤمنون بمحمّد عليه

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٣٤ .

(٢) البحر المحيط ١/٤٢٠ وتفسير ابن كثير ١ / ١٩٢ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٣٤ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٢٠ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٤٢١ .

السّلام وبما جاءكم به من عند الله فخصصنا كم بالتّوفيق لقبلة إبراهيم وملّته وفضّلنا كم بذلك على من سواكم من أهل الملل كذلك خصصنا كم ففضّلنا كم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلنا كم أمّةً وسطا[١] .

أمّة : الأمّة هي القرن من النّاس والصّنف منهم وغيرهم[٢] .

وسطًا : خيارًا عدولاً[٣] والوسط اسمٌ لما بين الطّرفين[٤] وهي صفةٌ بالاسم الّذى هو وسط الشّيء ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنّث[٥] ويقول الزّمخشرىّ[٦] : « وقيل للخيار وسط لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل والأعوار . والأوساط محميّة محوطة . ومنه قول الطّائىّ :

كانت هى الوسط المحمىّ فاكتنفت بها الحوادث حتّى أصبحت طرفا

وقد اكتريت بمكّة جمل أعرابىّ للحجّ فقال : أعطنى من سطاتهنّه أى من خيار الدّنانير » والوسط فى كلام العرب الخيارُ[٧] والأجودُ كما يقال : قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا أى خيرها . وكان رسول الله ﷺ وسطًا فى قومه ، أى أشرفهم نسبًا . ومنه الصّلاة الوسطى الّتى هى أفضل الصّلوات وهى العصر كما ثبت فى الصّحاح وغيرها . ولمّا جعل الله هذه الأمّة وسطًا خصّها بأكمل الشّرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب[٨] روى التّرمذىّ عن أبى سعيدٍ الخدرىّ عن النّبىّ ﷺ فى قوله تعالى : وكذلك جعلناكم أمّة وسطا ، قال : عدلاً . قال : هذا حديثٌ حسنٌ صحيح . وفى التّنزيل : قال أوسطهم ، أى أعدلهم وخيرهم . وقال زهير :

هُمُ وسطٌ يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى اللّيالى بُمْعظَمِ

ووسط الوادى خير موضعٍ فيه وأكثره كَلأً وماءً . ولمّا كان الوسَطُ مجانبًا للغلّو

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٥ (٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٠ والجلالين والكشّاف ١ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ والبحر المحيط ١ / ٤٢١ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤١٨ (٥) الكشّاف ١ / ٢٤٢ .
(٦) الكشّاف ١ / ٢٤٣ (٧) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٥ .
(٨) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٠ .

والتّقصير كان محمودًا ، أى هذه الأمّة لم تغل غلوّ النّصارى فى أنبيائهم ولا قصّروا تقصير اليهود فى أنبيائهم . وفى الحديث : خير الأمور أوسطها[١] .

لتكونوا شهداء على النّاس : الشّهداء جمع شهيد[٢] ويقول أبو حيّان[٣] : « وأتى بجمع فعلاء الّذى هو جمع فعيل وبشهيد لأنّ ذلك هو للمبالغة دون قوله شاهدين أو أشهادا أو شاهدا » وقال الإمام أحمد : حدّثنا وكيعٌ عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيدٍ قال : قال رسول الله ﷺ : يدعى نوحٌ يوم القيامة فيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول نعم . فيدعى قومه فيقال لهم هل بلّغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمّدٌ وأمّته . قال : فذلك قوله : وكذلك جعلناكم أمّةً وسطا . قال : الوسط العدل . فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثمّ أشهد عليكم . رواه البخارىّ والتّرمذىّ والنّسائىّ وابن ماجة[٤] وبعد أن ذكر القرطبىّ الحديث برواية البخارىّ أضاف[٥] : « وذكر هذا الحديث مطوّلاً ابن المبارك بمعناه وفيه : فتقول تلك الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الرّبّ سبحانه : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربّنا بعثت إلينا رسولاً وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنّهم قد بلّغوا فشهدنا بما عهدت إلينا فيقول الرّبّ : صدقوا ، فذلك قوله عزّ وجلّ : وكذلك جعلناكم أمّةً وسطا » .

ويكون الرّسول عليكم شهيدا[٦] : « لا خلاف أنّ الرّسول هنا هو محمّد ﷺ ، وفى شهادته أقوال : أحدها شهادته عليهم أنّه قد بلّغهم رسالة ربّه . والثانى شهادته عليهم بإيمانهم . الثّالث يكون حجّةً عليهم . الرّابع تزكيته لهم وتعديله إيّاهم قاله عطاء : قال : هذه الأمّة شهداء على من ترك الحقّ من النّاس أجمعين . والرّسول شهيدٌ معدّلٌ مزكٍّ لهم . وروى فى ذلك حديث » وبعد أن نبّه أبو حيّان إلى صيغة المبالغة الّتى جاءت وفقها لفظة

---

(١) تفسير القرطبى ٥٣٦ وانظر تفسير الطّبرى ٢ / ٥ .

(٢) تفسير الطّبرى ٢ / ٦ (٣) البحر المحيط ١ / ٤٢٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٠ وانظر تفسير الطّبرى ٢ / ٦ ، ٧ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٣٧ (٦) البحر المحيط ١ / ٤٢٢ .

شهيد يقول[١] : « وقد استدلّ بقوله : ويكون الرّسول عليكم شهيدًا على أنّ التّزكية تقتضى قبول الشّهادة فإنّ أكثر المفسّرين قالوا : معنى شهيدًا مزكّيًا لكم . قالوا : وعليكم تكون بمعنى لكم » .

وما جعلنا القبلة الّتى كنت عليها : وما جعلنا صرفك عن القبلة الّتى كنت عليها وتحويلك إلى غيرها[٢] والقبلة الّتى كان عليها بيت المقدس[٣] عن ابن عبّاس رضى الله عنهما : كانت قبلته بمكّة بيت المقدس إلاّ أنّه كان يجعل الكعبة بينه وبينه[٤] .

وعَقِب القدم وعَقْبُها مؤخّرها مؤنّثة . وولّى على عقبه وعقبيه إذا أخذ فى وجهٍ ثمّ انثنى . وفى الحديث : لا تردّهم على أعقابهم أى إلى حالتهم الأولى من ترك الهجرة . وفى الحديث : ما زالوا مرتدّين على أعقابهم أى راجعين إلى الكفر كأنّهم رجعوا إلى ورائهم[٥] والرّجوع على العقب أسوأ أحوال الرّاجع فى مشيه على وجهه . فلذلك شبّه المرتدّ فى الدّين به[٦] وأصل المرتدّ على عقبيه هو المنقلب على عقبيه الرّاجع مستدبرًا فى الطّريق الّذى قد كان قطعه منصرفًا عنه فقيل ذلك لكلّ راجعٍ عن أمرٍ كان فيه من دينٍ أو خير[٧] .

وإن كانت : إنْ هى المخفّفة من الثقيلة « إنّ » واسمها محذوف أى وإنّها كانت[٨] فإذا خفّفت إنّ المكسورة الهمزة أهملت غالبًا لزوال اختصاصها . وتلزم لام الابتداء الخبر بعد المُهْملة فارقةً بينها وبين إن النّافية[٩] واسم كانت مضمر يعود على التّولية عن البيت المقدّس إلى الكعبة قاله ابن عبّاس ومجاهد وقتادة[١٠] وتقديره فى العربيّة : وإن كانت التّحويلة[١١] أو التّولية[١٢] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٢٣ (٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٨ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٨ (٤) الكشّاف ١ / ٢٤٣ .
(٥) لسان العرب « عقب » (٦) البحر المحيط ١ / ٤٢٥ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٢ / ١٠ (٨) انظر الجلالين والكشّاف ١ / ٢٤٣ .
(٩) القواعد الأساسيّة للّغة العربيّة السيّد أحمد الهاشمىّ ص ١٦٦ .
(١٠) البحر المحيط ١ / ٤٢٥ (١١) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٠ .
(١٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٠ والجلالين .

لكبيرة : لثقيلةً شاقّة[١] صعبة[٢] عظيمة[٣] .

وما كان الله ليضيع إيمانكم : إيمانكم : أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله . وفى الصّحيح من حديث أبى إسحاق السّبيعى عن البراء قال : مات قومٌ كانوا يصلّون نحو بيت المقدس فقال النّاس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : وما كان الله ليضيع إيمانكم . ورواه التّرمذىّ عن ابن عبّاس وصحّحه[٤] وقال أناسٌ لمّا صرفت القبلة نحو البيت الحرام : كيف بأعمالنا الّتى كنّا نعمل فى قبلتنا الأولى ؟ فأنزل الله. عزّ وجلّ : وما كان الله ليضيع إيمانكم[٥] فسمّى الصّلاة إيمانًا لاشتمالها على نيّةٍ وقولٍ وعمل [٦] وأتى بكان المنفيّة بما الجائى بعدها لام الجحود لأنّ ذلك أبلغ من أن لا يأتى بلام الجحود فقولك : ما كان زيدٌ ليقوم أبلغ من ما كان زيدٌ يقوم لأنّ فى المثال الأوّل هو نفى التّهيئة والإرادة للقيام . وفى الثّانى هو نفى للقيام . ونفى التّهيئة والإرادة للفعل أبلغ من نفى الفعل[٧] وكنى عن الصّلاة بالإيمان لمّا كانت صادرةً عنه وهى من شعبه العظيمة[٨] وكان ذكر الإيمان أولى من ذكر الصّلاة لئلاّ يتوهّم اندراج صلاة المنافقين إلى بيت المقدس[٩] .

إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم : لا يضيع أجورهم ولا يترك ما يصلحهم[١٠] ولمّا كان نفى الجملة السّابقة مبالغًا فيها من حيث لام الجحود ناسب إثبات الجملة الخاتمة مبالغًا فيها ، فبولغ فيها بإنّ وباللّام وبالوزن على فعولٍ وفعيل ، كلّ ذلك إشارةٌ إلى سعة الرّحمة وكثرة الرّأفة[١١] .

---

(١) الكشّاف ١ / ٢٤٤ (٢) البحر المحيط ١ / ٤٢٥ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٢ / ١١ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٢ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٤٠ والبحر المحيط ١ / ٤٢٦ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٨ (٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٠ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٤٢٦ (٨) البحر المحيط ١ / ٤٢٦ .
(٩) البحر المحيط ١ / ٤٢٦ (١٠) الكشّاف ١ / ٢٤٤ .
(١١) البحر المحيط ١ / ٤٢٧ .

قرّرت الآية الكريمة السّابقة فى تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم . وهذه الآية الكريمة تبدأ بالقول : « وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا » والمعنى ومثل ذلك التّوفيق الّذى قدّرناه لكم بأن هدينا كم بمحمّدٍ ﷺ إلى الصّراط المستقيم ، وخصصنا كم بقبلة أبيكم إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء دون سائر الأمم ، جعلناكم يا أمّة محمّد ﷺ أمّةً وسطًا ، خيارًا عدولاً ، وأرشدناكم إلى الطّريق القويم والنّهج المستقيم الطّريق الوسط النّائى عن غلوّ النّصارى فى عيسى عليه السّلام وعن تقصير اليهود فى أنبيائهم الّذين قتلوا بعضهم بغير حقّ . إنّ هذه الأمّة قد خصّها الله تعالى بالوسطيّة فى كلّ شئونها الدّينيّة والدّنيويّة ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ الله سبحانه وتعالى قد بعث محمّدًا ﷺ بالحنيفيّة السّمحة دين أبينا إبراهيم عليه السّلام .

وبسبب اصطفاء الله تعالى هذه الأمّة بأن جعلها أمّةً وسطًا ، خيارًا عدولاً ، اصطفاها الله تعالى بأن يكون أفرادها شهداء ، هكذا فى صيغة المبالغة ، على النّاس كلّ النّاس يوم القيامة ، بأنّ رسل الله تعالى إليهم ، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام ، قد بلّغوا رسالة ربّهم ، وأدّوا الأمانة ، ونصحوا الأمّة . إنّ هذه الأمّة الوسط الّتى آمنت بالله تعالى ربًّا ، وبالقرآن الكريم دستورًا ، وبمحمّدٍ ﷺ رسولاً ، كانت أهلاً لأن يكون أفرادها شهداء يوم القيامة على النّاس بتبليغ الرّسل لهم رسالة ربّهم جلّ وعلا ، اعتمادًا على ما أوحى الله تعالى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ من قرآنٍ مجيد وسنّةٍ مطهّرة . وإنّ أمّة محمّد ﷺ الّتى صارت أهلاً لأن يكون أفرادها شهداء على النّاس ، سيكون الرّسول الكريم ﷺ عليهم شهيدا ، هكذا فى صيغة المبالغة أيضًا . وإنّما وصلت هذه الأمّة إلى تلك المرتبة الرّفيعة مرتبة الشّهادة على النّاس لاصطفاء الله تعالى لها بكونها أمّة أشرف الأنبياء والمرسلين ، محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى اصطفاه الله تعالى بالشّهادة على خير أمّةٍ أخرجت للنّاس .

ونستطيع أن نفهم شهادة المصطفى ﷺ على أمّته بكونها من جنس شهادة أمّته ﷺ على النّاس . فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام يشهد يوم القيامة على أمّته بأنّه عليه الصّلاة